

## القسم الرابع

### رتشارد الأول

١١٨٩-١١٩٩

شارك رتشارد قلب الأسد والده في بعض قدراته الادارية، لكن ماتمميز به هو القتال، فلقد شن الحرب بشدة ووحشية وحماسة طوال معظم مدة حكمه، حيث حوّل ممالكه من خلال نشاطاته إلى حالة القرب من الافلاس، وحمله هوسه إلى الأراضي المقدسة في ١١٩١-١١٩٢، في حملة صليبية كانت من بعض الجوانب ناجحة، غير أنها انتهت بشكل مأساوي، ووقع بالأسر وهو في طريق عودته إلى انكلترا، وبقي معتقلاً ينتظر الفدية، في سجن ألماني في ١١٩٣-١١٩٤، وما أن عاد إلى موطنه، حتى رجع رتشارد إلى ساحة المعركة، وفي هذه المرة ضد زميله في الحملة الضليبية فيليب الثاني ملك فرنسا، وواجه رتشارد منيته المبكرة سنة ١١٩٩، أثناء مناوشة صغيرة مع حليف لفيليب كونت أكوتين.

ونبعت عداوة الملك الفرنسي نحو رتشارد من سبب رفض قلب الأسد الزواج من أخته أليس، وذلك على الرغم من خطبته لها منذ سن الطفولة، هذا من جانب، ومن جانب آخر لزواج رتشارد من بيرنغاريا النافارية، هذا ولم ينجب هذا الزواج لرتشارد ولياً للعهد، وأعطى هذا إلى أخيه جون مساحة واسعة لخطط تأمرية.

ونجد من جديد في الجزء الرابع أن كتاب «صورة التاريخ» لرالف

ديستو، هو المصدر الرئيسي لهذه المرحلة التي وصف بها حوادث حكم رتشارد.

بعدها رتب رتشارد كونت بواتو المسائل على أحسن مايرام لضمان السلام والهدوء في أكويتين، وانجو، وتورين، ومين، وصل إلى نورماندي، وجاء وصوله بعد ثلاثة أسابيع من وفاة والده، في ٦ تموز ١١٨٩، والتقى بكل من رئيسي أساقفة كانتبري وروان في سيز Seez وسأل العفو، وتلقى الغفران لاقترافه جريمة حمل السلاح ضد والده، بعد حمله شارة الصليب للقيام بحملة صليبية، ومن هناك ذهب إلى روان حيث تسلم علم وسيف دوقية نورماندي من يدي رئيس أساقفة روان، وحدث ذلك أمام المذبح المرتفع في كنيسة العذراء المقدسة، وكان على مشهد من حشد من النبلاء.

ثم ذهب إلى انكلترا، واستقبل هناك استقبالا عظيما في ونشستر يوم ١٥ آب، وأسند إلى الملكة إليانور التي كانت تحت حراسة مشددة، سلطة العمل ككناينة لابنها، وفي الحقيقة أصدر التعليمات إلى أمراء المملكة، على شكل مرسوم عام، بأن كلمة الملكة ينبغي أن تكون قانونا في جميع المسائل.

وبما أن رتشارد كان قد قاوم والده، وبذل كما يبدو الكثير من الجهد لإثارة القوى الفرنسية التي كانت معادية للنورمان، لهذا كسب عدم رضا الناس الطيبين والعاقلين، وقد أراد الآن — على كل حال — أن يغسل جميع تجاوزاته الماضية، باظهار التشريف لأمه، وكان يأمل أن طاعته لأمه سوف تسهم في تلطيف أعماله العدوانية ضد أبيه.

وأظهرت هذه الحوادث صدق النبوءة التي حيرت الجميع بغموضها حيث قالت: «سوف يفرح النسر صاحب الرباط المقطوع بفرخه الثالث»،

فلقد دعوا الملكة النسر، لأنها مدت جناحيها - كما حدث - فوق مملكتين هما: فرنسا وانكلترا، فقد انفصلت عن الرباط الفرنسي من خلال الطلاق، بينما فصلها الانكليزي وأبعدها عن فراش الزوجية بحبسها بالسجن (لقد سجت ست عشرة سنة تماماً)، وهكذا كانت بالنسبة للبلدين «النسر صاحب الرباط المقطوع»، ومن الممكن فهم الجزء الثاني من النبوءة قولها: «سوف يفرح بفرحه الثالث» كما يلي: لقد كان أول أولاد إليانور هو ابنها وليم، الذي توفي وهو ما يزال طفلاً، وارتقى ابنها الثاني إلى مرتبة ملك، غير أنه حمل السلاح ضد والده، وسدد ديونه إلى الطبيعة، وكان رتشارد هو ولدها الثالث، وهو على هذا الفرخ الثالث، وهو أيضاً الذي سيتولى رفع اسم أمه إلى أعالي المجد.

وعندما علمت الملكة إليانور أن خيول الملك هنري الثاني محفوظة في اصطبلات الدير، وزعتهم ومنحتهم على شكل أعمال كرم تقوية، واحتفظت بخدمات الرجال الذين عهد إليهم بأمر العناية بالغابات، وهددتهم بانزال عقوبات قاسية بهم.

وبناء على دعوة من رئيس أساقفة كانتبري اجتمع الأساقفة الآخرون في لندن يوم ٣-أيلول من أجل تتويج الملك الجديد، وجاء أيضاً رعاة الدير ورؤساؤها، وحضرت الملكة إليانور بناء على طلب الإيرلات والبارونات، وكبار المسؤولين، هذا ومن غير الممكن تعداد أسماء جميع الأساقفة الذين حضروا، لكن رؤساء أساقفة كانتبري وتريف ودبلن كانوا هناك.

قدم كتاب «أعمال الملك رتشارد» تفاصيل حية ومشرفة وصف بها تتويج رتشارد.

هنا بداية احتفال تتويج ملك انكلترا:

جاء أولاً الأساقفة ورعاة الدير وعدد كبير من رجال الدين، كلهم قد

ارتدى ثياباً أرجوانية، تتقدمهم الصليبان، والشموع والمباخر حتى باب القاعة الداخلية، وهناك استقبلوا رتشارد المتقدم الذكر، وهو الذي كان سيتوج، وقادوه إلى داخل كنيسة وستمنستر على هذه الصورة حتى المذبح في موكب وقور تتخلله التراتيل.

وسار في المقدمة رجال الدين، في الملابس البيضاء، وهم يحملون الماء المقدس، والصليب والشموع والمباخر، ثم تلاهم رعاة الديرة، ومن بعدهم الأساقفة، وسار على أي حال وسط هؤلاء الناس أربعة من البارونات يحملون الشمعدان بالشموع.

وجاء بعدهم جون مارشال وهو يحمل في يديه مهمازين واسعين وثقلين أخرجوا من خزانة الملك، ومضى بعده غودفري دي لوسي وهو يحمل الصدرية الملكية.

وجاء من بعدهم اثنان من الإيرلات هما: وليم مارشال، إيرل بامبروك، ووليم إيرل سالسبري، وكان وليم مارشال يحمل الصولجان الملكي، الذي كان على رأسه شكل صليب ذهبي، وكان وليم إيرل سالسبري يحمل العصا الملكية التي كان على رأسها حمامة.

وجاء من بعدهم ثلاثة من الإيرلات هم: داود أخو ملك اسكوتلندا، وإيرل هنتغدون، وروبرت إيرل ليستر، وبينهما جون كونت مورتين وإيرل غلويستر، وهو أخو رتشارد، وكانوا يحملون ثلاثة سيوف مع أقربة ذهبية رائعة أخرجت من خزانة الملك.

وجاء بعدهم ستة إيرلات وبارونات يحملون لوحاً واحداً وضعت عليه الأردية الملكية والثياب. وقدم من بعدهم وليم دي ماندفيل كونت أوميل وإيرل ايسكس، وهو يحمل تاجاً ذهبياً بين يديه، وجاء بعده رتشارد دوق نورماندي وكونت بواتو، وسار عن يمينه هيوغ أسقف درم، وعن يساره رينالد أسقف باث Bath وحمل من فوقهم غطاء ذهبي، وسار إثرهم

جمهور الإيرلات والبارونات والفرسان مع الآخرين بأكملهم، من رجال دين وغير رجال دين، وتابعوا سيرهم في داخل الكنيسة ومن خلالها وصولاً حتى المذبح.

وبعدما وصل الدوق رتشارد إلى المذبح أدى ثلاثة أيان لمن تقدم ذكره من رؤساء الأساقفة والأساقفة، والإيرلات، والبارونات ورجال الدين وسواهم من الشعب، لقد أقسم ووعده على الأناجيل الأعظم قداسة وعلى الآثار المقدسة لعدد كبير من القديسين أنه سيحمل في نفسه 'سلام، والتشريف والاحترام نحو الرب والكنيسة المقدسة ورجال الدين بها جميع أيام حياته، ثم أقسم بعد هذا أنه سيطبق العدالة الطيبة نحو 'شعب الموكل إليه حكمه، ثم أقسم أنه إذا كان في مملكته أية قوانين بسطة أو عادات سوف يدمرها، ويعلي شأن ما هو جيد مكانها.

ثم نزعوا عنه ثيابه التي كان يرتديها باستثناء قميصه، وسراويله، ولم يكن قميصه مخاطباً عند كتفيه.

ثم ألبسوه نعلين حيكاً من الذهب.

ثم وضع رئيس الأساقفة الصولجان في يده اليمنى والعصا الملكية في يده اليسرى.

ثم صب بلدوين رئيس أساقفة كانتربري الزيت المقدس فوقه على ثلاثة أجزاء من جسده، هي: على رأسه، وعلى كتفيه، وعلى ذراعه الأيمن، وذلك مع الصلاة المحددة لهذا العمل، وهكذا عمدته ملكاً.

ثم وضع على رأسه غطاء مقدساً من الكتان وقلنسوة فوقه، ثم ألبسوه الثياب الملكية، أولاً المنزر ثم القميص.

ثم أسند إليه رئيس الأساقفة السيف ليردع به الذين يقتربون إثماً ضد الكنيسة.

ثم ألبسه الإيرلان مهمازين ذهبيين من خزانة الملك.

ثم لبس الرداء، وبعدها اقتيد إلى المذبح، وهنا حذره رئيس الأساقفة ومنعه بوساطة سلطات الرب، أنه كرجل لايجوز له استخدام مكانته لنفسه، ما لم يكن قد دار في خلده عدم الاحتفاظ بأيمانه ووعوده التي اتخذها قبل قليل، وقد أجاب أنه بعون الرب، سيراعي كل شيء قاله من قبل ويعلي شأنه باخلاص وإيمان.

ثم أخذ التاج من على المذبح، وأعطاه إلى رئيس الأساقفة، ووضعه رئيس الأساقفة على رأس الملك.

واقتيد إثر هذا الملك إلى عرشه، وعلى يمينه هيوج أسقف درم، وعلى يساره رينالد أسقف باث وهما يقودانه، وكانت الشموع والسيوف الثلاثة المذكورة من قبل تسير أمامه.

ثم بدأ القداس الرباني، وعندما وصل إلى المقدمة، قاده الأسقفان المتقدم ذكرهما نحو مذبح المقدمة ثم أعاداه إلى العرش.

وبعد انتهاء القداس، وبعدهما جرى تنفيذ كل شيء طبقاً للطقوس، قاد الأسقفان المتقدم ذكرهما، الملك المتوج عائدتين أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره، وهو يحمل الصولجان في يده اليمنى والعصا الملكية في اليسرى، وساروا بشكل منتظم من الكنيسة إلى منزله في موكب، ثم عاد الموكب إلى جوقة المرتلين.

ثم وضع الملك جانباً تاجه، وثيابه الملكية، وارتدى تاجاً ألطف وثياباً أخف، وهذه الصورة جاء الرجل المتوج إلى الوليمة، وجلس رؤساء الأساقفة والأساقفة ورعاة الديرة وبقية رجال الدين معه إلى مائدته الخاصة، وجلس الإيرلات والبارونات والفرسان إلى موائد أخرى واحتفلوا بشكل رائع.

وبعد الفراغ من الوليمة، وصل قادة اليهود، معاندين لمرسوم كان قد صدر عن الملك، ففي اليوم المتقدم كان الملك قد منع بوساطة إعلان عام قدوم أي يهودي أو يهودية لحضور تتويجه، وألقى رجال البلاط القبض على اليهود، ونزعوا عنهم ملابسهم وتولوا ضربهم، وبعدما أنزلوا أقسى الضربات بهم رموهم خارج البلاط الملكي، فقتل بعضهم، وترك بعضهم الآخر يذهبون وهم نصف موتى، وكان أحد هؤلاء اليهود قد جرح جراحة شديدة مما تعرض له من ضرب وجلد، وجعلته جراحه يائساً من حياته، ولرعبه وخوفه من الموت تقبل التعميد على يدي وليم رئيس كنيسة القديسة ماري في يورك، وأعطى اسماً مسيحياً هو وليم، وبهذه الطريقة تجنب خطر الموت وأيدي معذبيه.

وعلى كل حال سمع شعب مدينة لندن بأن رجال البلاط قد تصرفوا بقسوة ضد اليهود، فانعطفوا بدورهم ضد يهود المدينة فسلبوهم وقتلوا كثيراً منهم من كلا الجنسين، وألقوا النيران في بيوتهم وحولوها إلى رماد وجرم يحترق، ومع هذا نجا عدد قليل من اليهود من هذه المذبحة، حيث اختبأوا خلف أسوار قلعة لندن، أو تحفوا في بيوت أصدقائهم.

وسمع الملك في اليوم التالي بأخبار الحادثة، فأمر باعتقال بعض هؤلاء المجرمين، وأحضرهم إلى أمامه، ثم صدر بحقهم حكم المحكمة، الذي قضى بشنق ثلاثة منهم على المشنقة: واحد منهم لأنه استولى على أشياء من واحد من المسيحيين، والاثنين الآخرين بسبب أنهما أشعلا النيران في المدينة، التي تسببت في إحراق عدد من بيوت المسيحيين، ثم بعث الملك وراء ذلك الرجل الذي جرى تحويله من اليهودية إلى المسيحية، وجلب معه الذين حضروا وشاهدوا تعميده، وسأله الملك فيما إذا كان الآن قد أصبح مسيحياً، وأجابه الرجل بأنه لم يصبح مسيحياً، ولكن بما أنه يرغب في تجنب الموت سمح للمسيحيين أن يفعلوا به ما يرغبوه، ثم سأل الملك رئيس أساقفة كانتربري والعدد الكبير الآخر من رؤساء الأساقفة

والأساقفة الذين كانوا حضوراً، ما الذي سيفعل معه، ورد عليه رئيس الأساقفة بشكل غير واضح وأدنى مما توجب عليه أن يظهر قائلاً: «إذا كان هو نفسه لا يرغب أن يكون من رجال الرب، دعه فليكن رجلاً من رجال الشيطان»، وهكذا عاد الرجل الذي جعل مسيحياً إلى شريعة اليهود (٢١).

وتلقى الملك في اليوم التالي ولاء تبعية رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الدير والإيرلات والبارونات من جميع أرجاء بلاده. وأوضح ديستو الترتيبات التي نفذها رتشارد في مملكته الانكليزية.

ورغب رتشارد ملك انكلترا في أن يبدأ حكمه بتقديم منحة إلى الرب، تعطى إلى رهبان السسترشيان كل سنة، وقدرها مائة مارك تؤخذ من مختلف ممتلكاته وتوزع على دخولهم، وكان أول عمل قام به كملك هو إرساله رسالة تحمل خاتمه لإيصال قراره هذا.

وبناء على تعليمات الملك ورئيس الأساقفة، جرى عقد مجلس في بايول Pipewell يوم ١٥ أيلول، للنظر في مسألة التعيينات للكراسي المقدسة الشاغرة، وهكذا جرى تعيين رتشارد أسقف أوف. إيلاي Ely خازن الملك، أسقفاً للندن، وصار وليم لونغ شامب: مستشار الملك، أسقفاً لإيلاي.

وكان عميد وكهنة لندن قد عبروا القنال، بناء على تعليمات من هنري الثاني، وذلك بهدف مشاركتهم في انتخاب الأساقفة، وتسلموا لدى عودتهم إلى انكلترا أربعين ماركاً من الخزانة لتغطية نفقاتهم.

وكمحاولة يائسة أخيرة للصمود في وجه توغل جيش صلاح الدين، ألقى ذي لوزغان، ملك القدس، الحصار على عكا، التي استولى عليها

المسلمون وكانت بحوزتهم منذ ١١٨٧، ونقل ديستو رسالة الأخبار هذه التي أرسلت إلى البابا والتي أوضحت كيف نجحت أخيراً حركة الملك الجرثمة هذه:

«شرح ملك القدس، وفرسان الداوية وفرسان الاسبتارية، ورئيس أساقفة بيزا، وعدد كبير من رجال بيزا في حصار عكا في يوم ٢٨ آب، وذلك على الرغم من عدم رضا كونراد مركيز مونتفرات ورئيس أساقفة رافينا وعدد كبير آخر من المسيحيين الذين عارضوا بأرائهم هذه الخطة، ولدى وصولهم إلى هناك حاصروا المدينة بقوة جبارة إلى حد أن أيّاً من المسلمين لم يعد بإمكانه الدخول إلى المدينة أو الخروج منها، وفي اليوم الثالث وصل صلاح الدين على رأس جيش عظيم، وهاجم غيوفري لوزغنان أخي الملك ومعه فرسان الاسبتارية، وأرغمهم على الانسحاب مع صفوف قتالهم، وهكذا فتح الطريق للذين رغبوا في دخول البلدة، أو مغادرتها، وأصيب المسيحيون منا برعب شديد، ولذلك تراجعوا نحو الخلف على الفور، وانسحبوا إلى إحدى الروابي المرتفعة التي وجدت هناك، غير أنهم لم يستطيعوا النجاة من صلاح الدين، الذي حاصرهم ومعه مائة ألف فارس، وعسكر قرب سفح ذلك الجبل، ولدى رؤية ملك القدس نفسه أنه بات محاصراً، بعث برسلاً إلى صور إلى المركيز ورئيس الأساقفة والفرسان الآخرين الذين كانوا مضادين لخطته، ورجاهم عدم توجيه اللوم إليه، لقلّة خبرته، كما كان، بل طلب منهم القدوم لتقديم العون إليه في وضعه المحرج، وانزعج مركيز مونتفرات انزعاجاً كبيراً لرؤيته المسيحيين في مآزقهم الصعبة، فاجتاز بحراً من صور وقدم إلى مساعدتهم مع رئيس الأساقفة وألف من الفرسان وعشرين ألفاً من الجنود الرجالة، وفي يوم ٢٤ أيلول، امتلأ صلاح الدين بالخوف أمام التطورات التي تلت وصولهم وتراجع قدر ميل واحد بصعوده الجبل.

وفي يوم ٤ تشرين أول اشتبكنا بمعركة مع المسلمين، فقد قاد الملك فرسان الاسبتارية مع الفرسان الفرنسيين في صف قتال واحد، وقاد المركز الصف القتالي الثاني مع رئيس أساقفة روان، ونحن أيضاً كنا معهم، وقاد اللاندغريف Landgrave الصف الثالث مع البيزيين والألمان، وكان في الصف الرابع أخو الملك، ومكث جيمس أوف أفسن Avesnes في المعسكر، وكنا جميعاً أربعة آلاف فارس ومائة ألف من الجنود الرجالة، هذا وامتلك عدونا صلاح الدين مائة ألف فارس، ومع هذا لقد كنا مسلحين بشارة الصليب المقدس، وعندما اشتبكنا بالقتال في الساعة الثالثة من النهار، أثار الرب جانبنا، فهربوا أمام سيوفنا وطاردناهم نحن حتى خيمهم نفسها، وتعرض الصف السابع من صفوف المسلمين إلى خسائر كبيرة على أيدي مهاجمينا النشطاء، ولقد قتلنا بلدوين [كذا] ابن صلاح الدين مع أخيه [ابن] تقي الدين الذي أصيب بجراحة قاتلة ومن المؤكد موته الآن أيضاً، ولقد تدبرنا قتل خمسمائة من فرسان صلاح الدين، وكان هذا أكثر بكثير مما تأملناه، وفيما نحن مشتبكين مع صلاح الدين في القتال، غادر خمسة آلاف فارس المدينة وقاموا بهجوم مفاجيء علينا، وعندما رأى صلاح الدين أحلافه تقائلنا، استخدم طاقاته وقواه ضدنا، ومع هذا ظللنا قادرين على الوقوف ضد صلاح الدين من أحد الجوانب وقاومناه مقاومة شجاعة من الجانب الآخر، وذلك قبل أن نتراجع إلى معسكرنا، ومهما كان الحال لقد قتل في ذلك اليوم مقدم فرسان الداوية مع عدد كبير جداً من رجالنا».

[وبعث ملك فرنسا إلى ملك انكلترا بالرسالة التالية]:

«من فيليب ملك فرنسا بنعمة الرب، تحيات وحب مخلص إلى أخيه الملك، والرجل المخلص، رتشارد ملك انكلترا.

ستعلم بسرور أن جهودنا في سبيل تقديم العون إلى مدينة القدس تتقدم تقدماً جيداً، ونطلب من الرب بصلوات متتابة أن يظهر مثوبته

لأعمالنا الإيمانية في أرض القدس، ولقد فهمنا من كلماتك، ومن المعلومات التي جلبها للتورسلك في أنك ترغب وتنوي السفر إلى القدس، وبعثنا إليك بوساطة هؤلاء الرسل بموافقتنا على رغباتك وعلى خططك نحو هذه القضية، ولسوف نؤكد هذا من خلال رسائلنا بشكل رسمي واضح، ولسوف يهتم رسلنا بقضية سلامتك في هذه المسألة وسيسلمون إليك رسائل موافقتنا الرسمية.

وجرى تنفيذ هذه الأعمال في شهر تشرين الأول من سنة ألف ومائة وتسع وثمانين من سني ربنا» (٢٢).

وجاء جون أوف أناغني Anagni كاردينال القديس مرقص إلى انكلترا كنائب للكرسي المقدس، وقد رسا في دوفر في ٢٠ تشرين الثاني، وأصدرت الملكة إليانور في اليوم التالي تعليمات بوجوب عدم سفره أية مسافة أخرى بعد وصوله إلى انكلترا من دون معرفة الملك، وهكذا أمضى ثلاثة عشر يوماً مملة في دوفر على حساب رئيس الأساقفة.

وجاء الملك وليم ملك اسكوتلندا إلى كانتبري، يرافقه في رحلته رئيس أساقفة يورك وأسقف لنكولن، وقدم الولاء إلى الملك، ولاقى رعاية منه، ودفع له عشرة آلاف مارك لتحرير جميع ممتلكاته الاقطاعية، وثمان ولاء رجاله الذين ربطوا أنفسهم بملكنا وأعادوا هذا الولاء الآن إلى الملك وليم.

وقدم الكونت جون كونت مورتين وأخو الملك التماساً هاماً بحضور الملك، ونائب البابا والأساقفة، وتشكى أنه بعدما تقدم بطلب استئناف إلى البابا، قام الأسقف بوضع الحرمان على جميع أراضيه لأنه تزوج من ابنة وليم إيرل غلوستر، وعندما سمع النائب البابوي جون أوف أناغني هذا، استجاب للاستئناف وحرر أراضيه من الحرمان.

وكان رتشارد ملك انكلترا سيتفوق على جميع أسلافه بحكم امتلاكه

لثروة هائلة، لو أن المبالغ الموعودة دفعت خلال الأشهر الأربعة الأولى للحكم الجديد، وتأكدت بضمانات مساوية لدخله حتى في السنة التالية.

وبعدما ناقش عدداً من المسائل المتعلقة بأوضاع المملكة مع بعض المسؤولين في دوفر (٢٣)، عبر القنال في ١٤ كانون الأول، ونزل في اليوم نفسه على مقربة من غريفلاينز Gravelines.

وفي هذه الآونة، توفي وليم ملك صقلية، وصهر ملك انكلترا، دون أن يخلف وريثاً مباشراً، وخلفه تانكرد قريبه القريب.

عندما جرى الاقلاع بالحملة الصليبية، جرى فرض ضريبة عشور على جميع البضائع المنقولة في أرجاء انكلترا كلها، وذلك بهدف ارسال المساعدات إلى القدس، وجرى تحصيل الضريبة بعنف بلغ حداً أن رجال الدين والعلمانيين أصيبوا بالرعب أن المساعدة تستخدم كمجرد حجاب للسلب.

[وصدر عن الملكين الإعلان التالي]:

«يبعث فيليب ملك فرنسا بنعمة الرب، ورتشارد ملك انكلترا بالنعمة نفسها، ودوق نورماندي وأكوتين وكونت انجو، بتحياتها الرقيقة باسم الرب إلى جميع من سيقراً هذه الرسالة.

ليكن معلوماً بينكم أننا وضعنا بكل تأكيد خطة، صغناها بناء على نصيحة رجال الكنيسة والنبلاء في بلادنا، في أننا سوف نساقر إلى القدس معاً، متخذين الرب دليلاً لنا، وقد وعد كل واحد منا أن يخدم الآخر باخلاص جيد وحب، ولسوف أنظر أنا فيليب ملك فرنسا إلى رتشارد ملك انكلترا على أنه صديقي ورجل مخلص، وأنا رتشارد ملك انكلترا سوف أنظر إلى فيليب ملك فرنسا، على أنه صديقي ومولاي، وبناء عليه قررنا أنه يجب على كل الموجودين في بلادنا والذين حملوا شارة الصليب المقدس، إما ان يتقدموا بالسفر قبلنا بأسبوع قبل حلول عيد الفصح، أو

أن يسيروا وسط جماعتنا، ما لم يحصلوا على إذننا بالبقاء، وكلّ من أراد البقاء وراءنا من دون علمنا وإذننا، سوف نحرمه، وسوف يفرض رجال الدين لدينا الحرمان على أراضيه، إن خطتنا، ورغبتنا ومانوصي به، هو أن يقوم جميع النبلاء في بلادنا — إذا ما امتلكوا الوسائل — بدعم بعضهم بعضاً بثرواتهم، وعلى كلّ حال إن ممتلكات الذين سيرتحلون إلى القدس سواء معنا أو قبل اقلاعنا بحملتنا، سوف تبقى سليمة دونها أذى كما لو أنها ممتلكاتنا، وإذا ما أذى أحد من الناس منافع هؤلاء الأشخاص سوف يقوم قضاتنا مع مأموري التنفيذ باتخاذ مايلزم من إجراءات ضده، وذلك في حدود مايسمح به القانون، وتماشياً مع عادات بلادنا، وإذا ماحاول أي انسان إثارة حرب ضد بلادنا أو أي جزء منها أثناء غيابنا، وخرق العدالة، سينال الحرمان، وإذا لم يقم خلال أربعين يوماً بتدارك مااقترفه من أضرار، نعلن أنه وورثته سوف يجرمون من ميراثهم بشكل أبدي.

جرى إعداد هذه الترتيبات يوم ٣٠ كانون الأول في نونانكورت».

وعلى كلّ حال لم يكن من الممكن تأكيد هذه المعاهدة بين الملكين على الفور، لهذا قالوا:

بما أن اليوم الذي كتبت فيه كان يوم سبت، لذلك أجلت حتى العيد المقبل للقديس يوحنا المعمدان، يوم الأحد ٢٤ حزيران، عندما شرعا بالحملة الصليبية، وفي ذلك اليوم نفسه توفيت مرغريت ملكة فرنسا أثناء الولادة في باريس، ودفنت في كنيسة نوتردام العظيمة، وكانت أول ملكة من ملكات فرنسا تدفن هناك.

## سنة تسعين ومائة وألف

وقرر عدد كبير ممن كانوا يستعدون لالتهاق بالحملة الصليبية إلى القدس في جميع أرجاء انكلترا أن عليهم أولاً النهوض ضد اليهود قبل محاربة المسلمين، وهكذا حدث في نوروك يوم ٦ شباط قتل جميع اليهود الذين وجدوا في بيوتهم، وفي ٧ آذار قتل عدد كبير منهم في ستامفورد في أحد الأسواق، وقيل تمّ في يورك يوم ١٦ آذار قتل حوالي الخمسين، وتولى كثير منهم جراحة بعضهم بعضاً، ذلك أنهم فضلوا لقاء الموت على أيدي أناس من شعبهم على الموت على أيدي غير المختونين، وقيل في ١٨ نيسان، يوم أحد السعف، جرى قتل خمسين منهم في بري سانت إدموند، ولقد ذبح اليهود من قبل الصليبيين أينما وجدوا، ما لم يتدبر انقاذهم بعض المواطنين — البرجاسية Burgess — وعلى كل حال، ينبغي ألا يخامر الشك أو الاعتقاد أحد أن أي رجل عاقل قد فرح بالعمل الجريء والمخيف بقتل اليهود، لأنه كتب في مزامير داود ما سمعناه يردد أمامنا مراراً: «لا تقتلوهم».

وفي هذه الآونة، عندما حوصرت عكا للمرة الأولى، نذر رجل انكليزي اسمه وليم، وكان شماس رالف أوف ديسيتو عميد كنيسة القديس بولص، وهو ذاهب إلى القدس: أنه إذا ما وصل سالماً إلى ميناء عكا، سوف يتولى تأسيس بيعة هناك بقدر ما تسمح له موارده، وأن يكرسها على اسم الشهيد المقدس توماس بكت، وسوف يتخذ هناك مقبرة تشريفاً له، وقد تحقق له ما أراد، وجاء عدد كبير من الناس من جميع الجهات إلى تلك البيعة، وجرى باتفاق عام تسمية وليم رئيساً لها، وبما أنه كان فارساً مكرساً للمسيح فقد اعتنى عناية خاصة بالفقراء، وعمل جاهداً جداً لدفن أجساد الموتى، من الذين قتلوا بالسيف أو الذين ماتوا على فراشهم، وكان هناك مقبرة أخرى دعيت باسم المشفى الألماني، وثالثة

أقدم من البقية حملت اسمها من القديس نيكولاس، وفيها جرى دفن  
مائة ألف وأربعة وثلاثين ألفاً من الرجال في سنة واحدة.

وفي رحلتها إلى روما، آثرت الملكة إليانور، أم الملك رتشارد، عدم  
ركوب البحر، خشية من مخاطرة، وسافرت عبر جبل جنيفر **Genevre**  
وسهول إيطاليا.

وكتب «البابا كليمنت إلى وليم أسقف إيلاي: تحيات.

طبقاً للرغبات المعلنة والطلب المفيد لولدنا العزيز في الرب، رتشارد،  
الملك اللامع للانكليز، نسند إليك، بموجب السلطات الرسولية، أيها  
الأخ، مركز القاصد الرسولي في انكلترا وويلز، وفي كل من مقاطعتي  
كانتبري وبيورك، وفي مناطق إيرلندا، حيث جون كونت أوف مورتين،  
أخو الملك، يمارس حكمه وسلطانه.

صدر في اللاتيران في ٧ تموز، في السنة الثالثة لحبريتنا».

وكتب «رتشارد ملك الانكليز إلى جميع رجاله المخلصين. تحيات:

نحن نقضي ونأمر، إنه بقدر ما أنتم مخلصون لنا وتحبون أنفسكم  
وممتلكاتكم، عليكم إطاعة مستشارنا العزيز والمخلص أسقف إيلاي في  
جميع أعمالنا، وأن تعملوا له مثلما تعملون لنا أنفسنا في جميع المسائل  
الذي يصدر إليكم تعليمات حولها. شهدت أنا نفسي في بيوني **Bay-**  
**onne** ٦ حزيران».

واتفق ملكا انكلترا وفرنسا على الالتقاء في فيزي في حوالي ٢٤ حزيران،  
ليذهبا إلى القدس، وانطلق ملك فرنسا نحو جنوى وملك انكلترا نحو  
مرسيليا.

وأقلع الملك رتشارد من مرسيليا يوم ٩ آب ١١٩٠، وبعد مرورهم بين  
أمواج البحر المالح وصلوا إلى ميناء روما، وجرى استقبالهم من قبل

أسقف أوستيا مع رسل كثيرين من عند البابا، ورفض الملك دعوة البابا لزيارته، وذهب إلى الجنوب عبر كابوا Capua.

ووصل رتشارد الأول وفيليب الثاني صاحب فرنسا إلى صقلية في أيلول ١١٩٠، وقررا إمضاء الشتاء هناك، وسمع رتشارد في أثناء إقامته شيئاً حول نبوءة ورؤيا جوشيم أوف فيور **Joochim of Fiore** وطلب أن يسمع النبوءة بنفسه، ويصف صاحب كتاب «أعمال الملك رتشارد» الذي قاله جوشيم للملك كما يلي:

كان في تلك الآونة راعي دير سسترشيانى في كالبريا Calabria اسمه جوشيم راعي دير كورازو corazzo امتلاً بروح التنبؤ، وكان يعظ الناس حول المستقبل، وأصغى الملك الانكليزي بانسراح إلى هذه النبوءات، وإلى حكمته وعقيدته، وكان جوشيم واسع المعرفة بالكتب المقدسة، وتولى تفسير رؤيا يوحنا اللاهوتي المبارك التي وردت في سفر الرؤيا، وكأنه كتب هذا السفر بيده، وكان الملك مسروراً ومعه كثير من الناس لدى سماعهم إياه وهو يفسر النص التالي:

«وظهرت آية عظيمة في السماء، امرأة متسربلة بالشمس والقمر تحت رجليها، وعلى رأسها اكليل من اثني عشر كوكباً. وهي حبلى تصرخ متمخضة ومتوجعة لتلد. وظهرت آية أخرى في السماء، هوذا تنين عظيم أحمر له سبعة رؤوس وعشرة قرون، وعلى رؤوسه سبعة تيجان، وذنبه يجر ثلث نجوم السماء فطرحها إلى الأرض، والتنين وقف أمام المرأة العتيدة أن تلد حتى يبتلع ولدها متى ولدت. فولدت ابناً ذكراً عتيداً أن يرعى جميع الأمم بعضاً من حديد، واختطف ولدها إلى الله وإلى عرشه. والمرأة هربت إلى البرية حيث لها موضع معدّ من الله لكي يعولوها هناك ألفاً ومئتين وستين يوماً» [الرؤيا: ١٢ / ١-٦].

وجرى تفسير الرؤيا من قبل جوشيم راعي دير كورازو حسب الطريقة التالية:

«المرأة المتسربلة بالشمس والقمر تحت رجليها»: في هذا اشارة إلى الكنيسة المقدسة، وهي متسربلة بشمس العدالة، التي مولها المسيح، وهي التي تحت رجليها العالم، وكل خرق ورغبات شهوانية، تقمع دوماً. «وعلى رأسها إكليل من اثني عشر كوكباً»: رأس الكنيسة هو المسيح، والإكليل هم المخلصون للكنيسة. «وهي حبل تصرخ متمخضة ومتوجعة لتلد». في هذا اشارة إلى أن الكنيسة المقدسة دوماً مسرورة نحو ميلاد جديد، فمن خلال الصלב أنقذت النفوس بوساطة عمل الرب. «وظهرت آية أخرى في السماء، هوذا تين عظيم أحمر له سبعة رؤوس وعشرة قرون»: في هذا اشارة إلى الشيطان، الذي يمكن أن يقال حقاً عنه أن لديه سبعة رؤوس، ورأس الشيطان كله إثم، ويعادل سبعة، وكأن نهاية محدودة يمكن وضعها على اللامحدود، لأن رأس الشيطان هو اللامحدود، ذلك أن المعادين للكنيسة والأثمين محدودين بالعدد.

وعدد جوشيم سبعة من الأعداء الرئيسيين للكنيسة، هم حسب عرضه: هيرو، ونيرون، وقسطنطينوس، ومحمد (صلى الله عليه وسلم)، وملسيموتوس، وصلاح الدين، والمسيح الدجال. وعن هؤلاء قال اللاهوتي المبارك في الأبوغرافيا: «إنهم سبعة ملوك، خمسة منهم ماتوا، وواحد مازال موجوداً، والآخر سيأتي»، وفسر جوشيم هذا وأوضح أن الملوك السبعة هم أصحاب الأسماء السبعة المسماة أعلاه، الذين خمسة منهم أموات وهم: هيرو، ونيرون، وقسطنطينوس، ومحمد (صلى الله عليه وسلم)، وملسيموتوس، والحلي من السبعة هو صلاح الدين، الذي هو في هذه الآونة عدو كنيسة الرب، فهو الذي وضع مدينة القدس تحت نير العبودية، مع مكان دفن الرب، والأرض التي وقفت عليها قدما الرب، ولقد قال: إنه بالقرب العاجل سيفقد مملكة القدس، ولسوف يقتل،

وينمحق من خلال نزعاته الجشعة، وستكون هناك مذبحه هائلة لم ير مثلها منذ بداية الخليقة، ولسوف يتشتت السكان المسلمون، وستفرغ مدنهم منهم، وسيعود المسيحيون وقتها إلى رعاية الرب وسيسكنون في هذه المدن».

وتوجه الراعي نحو رتشارد فقال:

«لقد أباح الرب هذا كله، ومن خلالك سيحدث أنه سوف يمنحك النصر على أعدائك، وسيمجد اسمك في الأبدية، وأنت سوف تمجده، وفيك سوف يمجد إذا ما حفظت العمل الذي بدأ، وسيظهر قريباً الواحد الذي هو المسيح الدجال»، وقال الراعي: «إنه قد اكتشف أن المسيح الدجال قد ولد، وأن خمس عشرة سنة قد مضت على ولادته، لكن لم يكتمل بلوغه وقوته بعد».

وبعدما أبدى عدد كبير دهشتهم تجاه الأشياء التي سمعوها، قال الملك للراعي: «أين ولد المسيح الدجال، وأين سيحكم؟» وأجابه جوشيم أنه يعتقد «أن المسيح الدجال قد ولد في مدينة روما، وسيستحوذ على الكرسي الرسولي هناك».

وأجابه الملك قائلاً: «إذا كان المسيح الدجال قد ولد في روما وسيستحوذ على الكرسي الرسولي، أعتقد أنه لا بد وأن يكون هو كلمنت الذي هو الآن البابا»، وقد قال هذا لأنه كان يكره البابا، وقال الملك أكثر من هذا، لقد زاد قائلاً: «لقد اعتقدت أن المسيح الدجال كان سيولد في بابل أو في أنطاكية من أصول من دان، وأنه سوف يحكم في هيكل الرب». وعندما قدم راعي دير كورازو الشرح المتقدم بشأن قدوم المسيح الدجال، بذل عدد كبير من الناس، بما فيهم جميع رجال الدين الذين أجادوا معرفة الكتب المقدسة، غاية جهدهم للبرهنة على أنه كان مخطئاً.

## سنة إحدى وتسعين ومائة وألف

وفي تلك الأونة كان رتشارد وفيليب يتشاجران فيما بينهما ويورطان نفسيهما في السياسات المحلية.

في يوم الجمعة الأول من آذار سنة ١١٩١ ذهب رتشارد، الملك الانكليزي، إلى مدينة مسينا ليتحدث مع تانكرد ملك صقلية، وكان هذا بناء على نصيحة من فيليب ملك فرنسا، وفي اليوم الثالث التالي قدم الملك الانكليزي إلى مدينة كاتانيا Catania حيث الجسد المقدس لأغاثة Agatha المقدسة، التي هي عذراء وقديسة.

وعندما سمع تانكرد ملك صقلية أنباء قدوم رتشارد، خرج إلى استقباله وسار نحواً من خمسة أميال خارج المدينة لتلقيه، وعندما راه عن بعد، وقبل أن يجتمعا بالفعل، ترجلا وركض كل واحد منهما نحو الآخر، وبادرا إلى التعانق بين بعضهما مع التحيات والقبلات، ثم امتطيا فرسيهما ودخلا إلى المدينة، ورحب بهما رجال الدين والشعب بالتراتيل والأغاني التي أنشدت في مديح الرب، وقد صليا أمام قبر أغاثة المباركة، ثم دخل الملك رتشارد إلى قصر الملك تانكرد ومكث معه ثلاثة أيام في وضع موائم.

وفي اليوم الرابع منح ملك صقلية ملك انكلترا عدداً كبيراً من الأواني المصنوعة من الذهب والفضة، وأهداه خيولاً وملابس ثمينة، لكن ملك انكلترا لم يرغب في قبول أي شيء، فيما عدا خاتم صغير، اختاره ليكون دليلاً على عواطفها المتبادلة بود، وعلى كل حال أعطى الملك الانكليزي تانكرد سيف آرثر المشهور، الذي كان فيما تقدم ملك البريطانيين، والذي دعاه البريطانيون إكسكاليبور Excalibur وأعطاه تانكرد أيضاً أربع

سفن كبيرة وخمس عشرة شيني.

وعندما عاد رتشارد، شيعه تانكرد شخصياً لمسافة يومين خلال تورمينا Taormina ، ثم عندما كان مستعداً للمغادرة قال له الملك تانكرد: «أستطيع الآن أن أعتقد وأبرهن أن ما أخبرني به الملك الفرنسي عنك في رسائله، صدر بالحري عن غيرة وليس عن حب لي، ذلك أنه أخبرني أنك لن تتعاون معي لابصدق ولابسلام، وأن الاتفاق الذي عقد فيما بيننا سيخرق، وأنتك لن تقدم إلى هذه المملكة إلا مع العنف ضدي».

ورد ملك انكلترا على هذا بحزم، ولم يفصح في كلماته عما أضمره في قلبه قائلاً: «السوء لمقتري الشرور، أنا لايمكنني أن أصدق أن هذا يصدر عنه، لأنه مولاي ورفيقي المربوط بالقسم خلال هذا الحج».

ورد الملك تانكرد على هذا قائلاً: «إنك لا بد وستصدق أنني ماقلت إلا صدقاً، لأنني سأريك الرسائل التي بعثها الملك الفرنسي إلي».

وعندما استلم الملك الانكليزي الرسائل من يد الملك تانكرد، جاء الملك الفرنسي إلى تورمينا ليتحدث مع الملك تانكرد.

هذا من جهة ومن جهة ثانية عاد الملك الانكليزي إلى مسينا، ومكث الملك الفرنسي ليلة واحدة في تورمينا، ثم عاد في اليوم التالي إلى مسينا، وغضب الملك الانكليزي غضباً عظيماً منه، وبات لايرغب في مصاهرته أو إقامة سلام معه، بل استهدف الحصول على فرصة ليتعد من هناك مع رجاله، ثم بحث الملك الفرنسي عندها بحثاً حثيثاً ليعلم ما القضية، وأخبر الملك الانكليزي الملك الفرنسي بالذي قاله له ملك صقلية، وجاء ذلك من خلال وساطة فيليب كونت فلاندرز وآخرين من أصدقائه ومعارفه، وأطلع الملك الفرنسي على الرسائل التي تسلمها من الملك تانكرد كبرهان، وعندما سمع الملك الفرنسي بهذا التزم الصمت، عارفاً نفسه أنه كان مجرمًا، ولم يعرف كيف يجيب، لكن بعدما استرد وعيه

وثاب إلى رشده أعلن قائلاً:

«إن هذه الكلمات زائفة وقد اخترعت حديثاً، ذلك أنني أعتقد، وأنا متأكد من ذلك، أنه يبحث عن مسوغ يمكنه من اتهامي، فمن الممكن من خلال هذا الزيف أن يرفض الزواج من أختي، التي أقسم على الزواج منها».

وعلى هذا رد الملك الانكليزي قائلاً: «إنني لأمقت أختك، لكنني لن أتخذها زوجة لي لأن أبي قد عرفها، وله ولد منها»، ووقف الملك رتشارد متصلباً ضد الملك الفرنسي، وبعد كثير من الأخذ والرد، حلل الملك الانكليزي من خطوبته لأخته أليس، وتسلم كجزء من الاتفاقية عشرة آلاف مارك من ملك انكلترا لصالحها، وعند عودة الملك الفرنسي إلى فرنسا ستعيد إليه أخته غيسور كلها، وجميع الأشياء الأخرى التي قررها لها كحصة زواج.

وعندها أعطى الملك الفرنسي إلى الملك الانكليزي براءة وترخيصاً في أن يتزوج من رغب بالزواج منها، وقدم تنازلاً آخر في أن يكون دوق بريتاني تابعاً مع وريثه لبريتاني، للملك الانكليزي بشكل أبدي، وهكذا ينبغي أن يغدو ملك انكلترا مع وراثته المسؤولين عن هذه الاقطاعية أمام الملك الفرنسي وورثته.

وغدا في ذلك اليوم كل من ملك انكلترا وملك فرنسا أصدقاء، وأكدوا بأخلاص وأيمان اتفاقيتهما، ولقد أكداها أيضاً كتابة تحت ختميهما.

أما وقد تحلل رتشارد من يمينه نحو أليس بات الآن حراً ليتزوج من بيرنغاريا النافارية، وروى لنا ديسيتو أن إيلانور الأكوثانية قد جلبتها إلى صقلية.

بعدها أمضت الملكة إيلانور مع ابنها أربعة أيام في مسينا، عادت إلى انكلترا، وخلفت وراءها بيرنغاريا ابنة ملك نافار، التي كان رتشارد

سيتزوج منها (٢٤)، وفي يوم ١٠ نيسان أبحر الملك رتشارد مع جيشه على ظهر أسطول تألف من مائة وست وخمسين سفينة، وأربع وعشرين بارجة نقل، وتسع وثلاثين شيني، وأخذ معه أخته جوانا وكذلك بيرنغاريا، وأبحر ملك فرنسا من مسينا يوم ٢٩ آذار.

وبعد رحلة دامت حوالي العشرين يوماً وصل الملك رتشارد إلى جزيرة رودس، ومكث خمسة أيام في البلدة، ثم بعد رحلة خمسة أيام أخرى رسا في جزيرة قبرص في مكان يدعى ليماسول، وذهب كورسك [اسحق دو كاس كومينوس] سيد تلك البلاد، الذي دعا نفسه بـ «الامبراطور» على رأس قوة كبيرة ليحول بها دون نزول ملك انكلترا، وسبب الكثير من الأضرار إلى رجال الملك، فذهب الذين كانت سفنهم قد تحطمت، وألقى بهم في السجن ليموتوا من الجوع، وغضب الملك رتشارد وسخط لهذا، وبادر ليتقم لهذه الأضرار، وحارب الأعداء وربح منهم نصراً سريعاً، واستبقى الرجل المهزوم في الأغلال، وأسر ابنته الوحيدة، وأخضع جميع قبرص مع قلاعها كلها، وعقد كورسك صفقة مع الملك قضت ألا يقيه الملك بالأصفاد الحديدية، وجرى تنفيذ ذلك، فاستبدل الأغلال الحديدية بأغلال من فضة ووضع في سجن في قلعة قرب طرابلس تدعى المرقب، وجرى الاحتفاظ بابنة كورسك في سجن لائق مع الملكتين في السرايق الملكي.

وكان في الوقت نفسه غي أوف لوزغان ملك القدس وجيشه ينتظر خارج عكا وصول المساعدة، كما شرح لنا ديسيتو فيما يلي:

«إلى المولى المبجل والأب في المسيح رتشارد أسقف لندن، وإلى هيوبرت بالنعمة نفسها أسقف سالسبري، التحيات باستمرار والصداقة الخالصة.

تقاوم مدينة عكا بشدة هجماتنا، ولانستطيع الاستيلاء عليها لأنها

مزودة بشكل جيد بالرجال، ومدافع عنها بآلات الحرب، وصلاح الدين على الجانب الآخر منا قد طوقنا، ويأمل المسيحيون أن يكونوا قادرين على تحمل الأعباء والمصاعب والآلام الناتجة عن الحصار حتى وصول ملوكننا، أي أن يكونوا في حوالي عيد الفصح المقبل، لكن إذا تأخروا أكثر لن نكون قادرين على تحمل الاستمرار، ووقتها سوف يتلاشى أملنا في الدعم. هكذا تسير الأمور بالنسبة لحصار عكا.

ونزل الملك الفرنسي في عكا في عيد الفصح، يوم السبت ٢٠ نيسان ١١٩١، والذي حققه الجيش المسيحي وحصل عليه من الهجوم على المدينة لمدة سبعة أسابيع، هو ما سيتم عرضه الآن وهو ما عرفناه وتذكرناه.

أقلع الملك رتشارد من قبرص ومعه ثلاث عشرة سفينة كبيرة تدعى بوكاس buccas في كل واحدة منها ثلاثة أشرعة، ومائة سفينة نقل وخمسين شيني كل منها ذات ثلاثة صفوف من المجدفين، وفيما هو مبحر فوق البحر العميق الواسع لمح أشرعة سفينة كبيرة جهزها سيف الدين صاحب مصر وهو أخو صلاح الدين، وأنفق عليها كثيراً، فهي قد جاءت لمساعدة المسلمين المحاصرين في عكا، وكانت مشحونة بالأطعمة والأسلحة الصالحة لكل نوع من أنواع القتال، والنفوط (النار الإغريقية) وحاويات فيها مواد متفجرة، وقد قيل بلغ عدد البحارة في هذه السفينة ألفاً وخمسمائة.

وتمّ بسرعة تناول كل شيء كان ضرورياً لمعركة بحرية، وطوقت الشواني السفينة الكبيرة التي تضاءلت سرعتها، وبدأ هجوم حاد عليها، ثم قام واحد من المجدفين، مقلداً أحد الطيور الصغيرة الذي يسمى النشال (الغواص) وسبح تحت الأمواج حتى صار تحت السفينة، فخرقها بوساطة مثقب، ولعله في عمله هذا كان قد سمع كيف قام اليعازر في أيام المكابيين فزحف تحت الفيل الذي كانت تدور حوله أعمال القتال العنيفة، وقتله بطعنه في معدته، وقد سحق اليعازر وهو ينفذ عملياته في

سبيل اليهود، ولكن مجدفنا، والمسيح في قلبه، عاد سالماً إلى مركبه، وجلس مجدداً على مقعده، وبعد مضي وقت قصير، أخذت المياه المتسربة إلى السفينة ترتفع فوق ألواحها، وقطعت آمال النجاة بالنسبة للبحارة، الذين كانوا من قبل واثقين من دفاعاتهم، وأمر الملك رتشارد باغراق ألف وثلاثمائة منهم، واحتفظ بمائتين فقط من بينهم، وقد حدث هذا يوم ٦ تموز [أقرأ: حزيران].

وتابع الملك سيره، ومالبت أن وصل إلى الميناء الذي كان قاصداً له، وردد الشاطيء أصوات النفير ودعواته، وزعيق الأبواق، وأنين الشبور المرعب، وقد أثار هذا المسيحيين وحثهم على القتال، وصك بالرعب قلوب المسلمين المحاصرين، وأعلن عن وصول حاكم كبير، فقد دخل الملك رتشارد إلى ميناء عكا يوم ٨ حزيران.

ونصب فيليب ملك فرنسا ورتشارد ملك انكلترا آلات حصارهم حول عكا، وسددا رمياتها نحو الأسوار، وعندما بدأت الرميات تضعف الدفاعات، بدأ المسلمون يشعرون بالخوف ويفقدون الأمل بالقدرة على الاستمرار بالصمود، وعندما تشاوروا مع المسلمين الآخرين أخذوا يسعون في سبيل السلام، ووافقوا على أن يقوم صلاح الدين بإعادة صليب الصلبوت في يوم حدد ميعاده، وأن يطلق ألفاً وخمسمائة من المسيحيين الأسرى لديه، وبناء عليه استسلمت المدينة إلى الملكين يوم ١٢ تموز بكل ماكان فيها من سلاح، وعتاد ومؤن تعود إلى المسلمين، الذين استسلموا حفاظاً على حيواتهم فقط.

لكن عندما جاء اليوم الموعود، ولم يحافظ صلاح الدين على قسمه من الصفقة، فقد حوالي الألفين وستمائة من المسلمين رؤوسهم انتقاماً لهذا، واستثنى من القتل عدد صغير من الأعيان، وضعوا تحت رحمة الملك، وأثقلوا بالأغلال.

وما ان استسلمت المدينة حتى اقترح الملك الفرنسي العودة إلى بلاده، وذلك لانتهاء كل شيء الآن، وعندما سمع الملك رتشارد بهذا، عرض على الملك الفرنسي، بحكم كونه مولاه، النصف من كل شيء قد جلبه، سواء من ذهب وفضة، ومؤن، وأسلحة، وخيول وسفن، ووعدته بتسليم ذلك كله إليه مقابل أية ضمانات يريدها، إنما مقابل أن يبقى، لكن فيليب كان مصراً تمام الاصرار على المغادرة، وعلى الرغم من معارضة رجاله، ومن غضب جميع الجيش المسيحي، صعد ظهر سفينة مع عدد ضئيل من مرافقيه للابحار نحو الوطن.

وبعدما غادر جرى ترميم الثلم الموجودة في سور عكا، وتم تحصين المدينة بالخنادق، ومن أجل أن يعلي شأن القضية المسيحية، وفي سبيل الوفاء بنذره، انطلق الملك رتشارد نحو يافا، وكان معه دوق بيرغندي وبرفقته الفرنسيين الذين كانوا تحت امرته، وكذلك الكونت هنري ورجاله، وعدد كبير آخر من الكونتات والبارونات ومالايحصى عدده من الناس العاديين، وكانت المسافة طويلة من عكا إلى يافا، وبعد جهود كبيرة، وخسائر عظيمة وصل الملك حتى قيسارية غير هياب، وعانى أيضاً صلاح الدين من الخسائر على الطريق نفسه، وتوقف الجيش هناك بعض الوقت حتى يسترد أنفاسه، ثم استأنف بشجاعة زحفه نحو يافا.

وعندما وصلت المقدمة إلى أرسوف، قام صلاح الدين بهجوم مفاجيء على الساقة، لكن برحمة ربانية هزم بوساطة هجوم معاكس قامت به أربع فرق مسيحية، وانهمز هو نفسه لمسافة مرحلة وهو يطارد من قبل الصليبيين الذين أنزلوا بأعيان المسلمين في يوم واحد مذبحه لم يعان صلاح الدين من مثلها في أربعين يوماً.

وفيا يلي رواية شاهد عيان عن معركة أرسوف، كتبها رتشارد كاهن الثالث المقدس في أولدغيت **Aldgate** في لندن.

عند بزوغ أول ضوء يوم ٧ ايلول سلح كل واحد نفسه بعناية بكامل سلاحه، وكان الترك سيتم التصدي لهم الآن.

لقد كان بإمكانك أن ترى أكثر الرفاق قدرة، والأعلام من مختلف الأنواع، وكثيراً من الرنوك، وكذلك أكثر الناس قسوة، وهم متشوقين، مستنفرين ومستعدين تمام الاستعداد للحرب.

وكان الملك رتشارد ودوق بيرغندي، مع كوكبة مختارة من الفرسان، وهم يطوفون هنا وهناك، يراقبون كل شيء من اليمين إلى اليسار، ويلاحظون تعبئة الأتراك وأوضاعهم حتى يستطيعوا تغيير تعبئة جيشهم بما يجدونه مفيداً، ولاشك أن يقظتهم كانت ضرورية جداً.

والآن، في منتصف الصباح انقض علينا حشد هائل من الأتراك، يقارب العشرة آلاف، بشكل مفاجيء وهجوم مباغت، وأطلقوا نحونا النشاب ورمونا بالحراب، وكانوا يصرخون بأصوات عالية مرعبة قاسية، واندفع إثرهؤلاء نحو الأمام شعب متوحش، ألوانهم سوداء جداً، وقد حملوا اسمهم وأخذوه بشكل صحيح من اللون، وبما أنهم كانوا سوداً، فقد عرفوا باسم السودان، وجاء أيضاً المسلمون الذين يعيشون في الصحراء، ويعرفون بشكل عام باسم البداءة، وكانوا مرعيين سوداً قاتمين مثل السخام، وكانوا رجالاً لا يمكن السيطرة عليهم، سرعتهم عظيمة وهم شعب سلاحهم خفيف يستخدمون النشاب مع الجعب والترسة، وكانوا رجالاً ذوي تصميم وشجاعة لا يعرفون الانحراف ويخيفون جيشنا.

ومضى أمام الأمراء نحو الأمام رجال ينفخون بالأبواق والصور، وكان بعضهم يحملون النفر، وآخرون الزمور والطبول والدفوف والصنوج، وكان آخرون يركون آلاتاً أخرى متنوعة، وكان كل واحد منصرف إلى عمله في اصدار جعجعة عالية مرعبة متنافرة النغمات، وكان صراخهم الحاد وزعقاتهم الشديدة قد بلغت حداً رددته الأرض حتى بات من غير

الممكن تمييز صفقات الرعد عن صوت البرق، وكان الهدف من هذه الأصوات إثارة الحمية والشجاعة، وكان كلما ارتفعت الأصوات، كلما تصلبت الروح من أجل القتال.

وهاجم الأتراك البغضاء جيشنا، وكانت ساحة المعترك قرابة الميلين، وكنت لا ترى في إطارها سوى الترك المعتدين، ثم قام رجالنا الشجعان ذوي الاقدام، الذين حرمت عليهم سمعتهم الفرار، والذين استهدفت أرواحهم الجريئة أن تتوج [بالشهادة]، بالصمود أثناء القتال، وواجهوا العدو وقاتلوه باصرار عظيم وثبات، وناضلوا بشجاعة لاتعرف التفهقر.

وعندما رأى الملك رتشارد الجيش قد وقف هذه الوقفة واشتبك بالعدو، غمز حصانه، وبسرعة طار الى هناك، ولم يتوقف عن الركض، ولم يشد عنان فرسه حتى التحق بصفوف الاستتارية المقاتلة ليقدم لها العون ومعه أتباعه، واندفع من اليمين حتى واجه أكثر الفرق التركية اربعاباً، وكانت عناصرها من الجنود الرجالة، الذين رغبوا بالموت، وقد أدهشتهم حملته، فسقطوا على مقربة منه من على اليمين والشمال، وهناك كان الملك رتشارد وحده هائجاً منقضياً على الأتراك، يقاتلهم ويصرعهم في كل مكان، ولم يكن هناك رجل واحد كان بإمكانه أن ينجو من ضربات سيفه، لأنه حيثما ذهب الملك عمل ممرأً طويلاً وعريضاً، بفضل استخدامه لسيفه، وتقدم الملك بدون مقاومة، وسيفه يشق له الطريق وسط الشعب الشرير، وكأنه يزيل الأعشاب بمنجله، وخشية أن يلاقي الأحياء مالاقته حشود الأموات، أفسحوا أمامه المجال، ولمسافة نصف ميل تمددت أجساد القتلى الأتراك على وجوهها فوق التراب.

بهذه الدرجة من القسوة كان الغضب الذي ثار ضد الأتراك في ذلك اليوم، وازدادت الضربات المميتة وتضاعفت إلى حد أن الأعداء تخلوا عن مقاومتهم وصراعهم، وأخلوا الطريق أمام جيشنا الزاحف، وهكذا تمكن أخيراً جرحانا من الالتفاف حول العلم، وتجمعوا ثانية وانتظموا داخل

صفوف القتال، وزحفوا بين الصفوف إلى أرسوف، وهناك نصبوا خيامهم خارج البلدة.

وكان بإمكانك أن ترى في ذلك اليوم، تبعاً لتقارير الذين رأوا الأتراك الفارين، آثار فرارهم خلال الجبال بوساطة الأسلاب التي ألقوا بها، والجمال والخيول وهي ملقاة مبعثرة هناك وهي ميتة، ذلك أن آلافاً منها ومئات سقطت على طول الطريق، وهي محملة بالأتقال.

وعندما كان رتشارد في صقلية أرسل وولتر أوف كاوتنس **Cou-**  
**tances** رئيس أساقفة روان عائداً إلى انكلترا ليراقب الأحداث هناك، ولإعطاء رسالة إلى المستشار لونغ شامب، ولقد تبع ديستو العداء المتزايد بين جون كونت مورتين ووليم لونغ شامب.

وعاد وولتر رئيس أساقفة روان من صقلية إلى انكلترا، ونزل في شورهام Shoreham يوم ٢٧ حزيران، وهو يحمل الرسالة التالية:

«من رتشارد ملك الانكليز إلى مستشاره وليم، وإلى غيوفري فتزيتير، ووليم مارشال، وهيوج باردولف، ووليم برور، تحيات:

بحكم أننا نحمل حباً عظيماً إلى الأب المبجل وولتر رئيس أساقفة روان، ونثق به ثقة عظيمة، بعشنا به إليكم من أجل سلامة مملكتنا والدفاع عنها، وقد حررناه من حجه بموافقة البابا، لأننا نعرفه حكيماً، ومستقيماً وقادراً، ومخلصاً جداً لأنفسنا، وبناء عليه نأمركم، ونؤكد أمرنا لكم بأن تعملوا وفقاً لآرائه في جميع المسائل المتعلقة بنا، وأن تتبادلوا أنتم وهو الآراء حول جميع المسائل مادام موجوداً في انكلترا ونحن غياب في حجنا، ونأمركم أن تفعلوا ما نخبه أن يخبركم إياه حول رئاسة أساقفة كانتربري. شهدت بنفسي. مسينا، ٢٣ شباط ١١٩١».

وكتب «رتشارد ملك الانكليز إلى وليم مارشال، وغيوفري فتزيتير، وهيوج باردولف ووليم برور:

إذا لم يعمل مستشارنا باخلاص وفقاً لأرائكم أنفسكم وآراء الآخرين الذين عهدنا إليهم بشؤون العناية بمملكتنا، نأمركم بتنفيذ كل مايرضيكم في جميع شؤون مملكتنا، وقلاعنا وممتلكاتنا، بدون نقاش».

وكتب «وليم لونغ شامب، أسقف إيلاي بنعمة الرب، إلى عمدة سسكس:

نأمركم إذا ماوصل أي رئيس أساقفة منتخب ليورك، أو وصل إلى أي ميناء من موانئ مقاطعتكم، أو وصل أي واحد من مبعوثيه، أن تحتفظوا به حتى تتسلموا أمراً منا، ومثل هذا نأمركم بالتحفظ على أي رسالة جاءت من البابا أو من أي شخص مهم».

وافق غيوفرري، وهو ابن غير شرعي لهنري الثاني، ورئيس أساقفة يورك المنتخب، على البقاء خارج انكلترا لمدة ثلاث سنوات، أثناء غياب رتشارد الأول في حملته الصليبية، غير أنه خرق هذا الوعد.

بينما كان رئيس أساقفة يورك مسافراً إلى انكلترا، نزل في ميناء يحمل اسم دوفر، يوم ١٤ أيلول. وعند نزوله هناك، قامت أخت وليم لونغ شامب، أسقف إيلاي، التي كانت تحرس القلعة هناك، بناء على أمر أخيها — حسبما قيل واعتقد — بعمل شرير وهو حصار رئيس الأساقفة وكهنته بوساطة حشد من الرجال من المسلحين، لمدة ستة أيام في رئاسة دير القديس مارتين، وقد ضيقوا عليه إلى حد توجب عليه الاستجداء لإعطائه الطعام بينما كان هناك، وعندما تطورت المضايقة والخيانة نحو الأسوأ، جاء فارسان من فرسان أسقف إيلاي، وهما: أوبري أوف مارني Auberey of Marney والاسكندر بيونتيل Puintel وهما مسلحان، واقتحما الكنيسة السالفة الذكر بسيف مشهورة في أيديهما، واندفعا نحو رئيس الأساقفة، وأمراه بحزم أن يغادر المملكة دونما تأخير أو

تردد، وأن يذهب إلى فلاندرز مع رجاله، وعندما رفض جروه بقدميه، وبرجليه وبذراعيه من المذبح على طول الطريق الطينية وخلال الأماكن القذرة، وهو لابس لقلنسوته وحامل لتصليبه، ولقد قرع رأسه بعنف فوق الرصيف، ومعه كهنته ورجال دين تقاطروا وتجمعوا لرؤيته، وجاءوا من أجزاء كثيرة، وفي يوم ١٨ ايلول اقتيد إلى القلعة، وألقي بالسجن لمدة ثمانية أيام.

وعندما سمع بهذا رتشارد أسقف لندن، عمل وسيطاً بين الفرقاء، وبادر مسرعاً بقدر ما أوتي من قوة إلى المستشار وليم لونغ شامب، وحصل منه بعد كثير من المناقشات على أمر بإطلاق سراح رئيس الأساقفة فقط، والاحتفاظ بجميع كهنته رهينة، وغادر رئيس أساقفة يورك السجن في ٢٦ ايلول، فبادر مسرعاً يسير عبر الطريق الطيني وخلال الأماكن القذرة، حيث كان قد جرّ، وهو لابس لثيابه الكهنوتية، وواضع قلنسوته على رأسه ويده الصليب، حتى وصل إلى دير القديس مارتن، وهناك قدم الشكر للرب وإلى القديس مارتن، وقد استقبل بترحاب عظيم من قبل الناس الذين تقاطروا من جميع الاتجاهات، وعندما وصل إلى لندن استقبل رئيس الأساقفة بموكب مهيب عند كاتدرائية القديس بولص، وكان ذلك يوم ٢ تشرين أول، وأظهر رتشارد أسقف لندن نحوه جميع أنواع اللطف الذي كان بإمكانه أن يبديه مع الرعاية والانفاق عليه وعلى أتباعه.

هزت معاملة وليم لونغ شامب لغيوفري رئيس أساقفة يورك، الكنيسة الانكليزية، وبهذا هيأت مسرحاً خصباً لتآمر الكونت جون ضد المستشار، حيث كتب إليه يقول:

«من جون كونت مورتين إلى رتشارد أسقف لندن. تحيات.

بما أنك تحب مجد الرب ومجد الكنيسة، ومجد الملك ومجد المملكة ومجدي، كن موجوداً على الجسر عبر لندن يوم ٥ تشرين أول، بين ردنغ ووندسور، لأنني — بإرادة الرب — سوف ألقاك هناك، لتباحث حول بعض القضايا الهامة والجادة التي تتعلق بالملك وبالمملكة».

في الحقيقة أعطى تحديد يوم الأحد موعداً للمناقشة إلى عدد كبير من الناس الشعور أن شيئاً تعيساً سيصدر عنه، وذلك لاعتقاد كثير من الناس، أن اليمين الذي يؤدي يوم السبت نادراً ما يكون فعالاً.

وهكذا أعطى المستشار الذي كانت قلعة وندسور تحت حكمه، عذراً بعدم القدوم هو: أن كثافة الغابة، وضيق الممرات، والأعداد الكبيرة من الفرسان والرجالة والخيالة الذين اجتمعوا للكونت جون — أخو الملك — من جميع المناطق، والذين هم جاهزون للقتال، وكذلك الخطط التأميرية لهنري دي فير Vere الذي أسهم هو نفسه بحرمانه من ميراثه، وأيضاً المسافة المعتبرة التي تفصل الجسر المذكور عن القلعة، ولهذا جرى تأجيل الاجتماع حتى يوم الاثنين.

وفي منتصف يوم الأحد، صعد رئيساً أساقفة روان ويورك المنبر مع عدد من الأساقفة كانوا قد التقوا في ردنغ حتى يكونوا حضوراً في المؤتمر، وما إن أشعلت الشموع حتى قاموا بتأثيم جميع الذين أشاروا بالرأي، أو ساعدوا، أو أمروا بأن يجر رئيس أساقفة يورك من الكنيسة ويتعرض للاذلال ويلقى به في السجن، وقرروا حرمانهم، وذكروا بالاسم: أوبري أوف مارني والاسكندريونتل. وفي يوم الاثنين، اقترح الكونت جون، بغية إزالة جميع الشبهات الخيانية، أن يذهب إلى مكان آمن قرب وندسور، وذلك استجابة لما طلبه المستشار، مقترحاً بالمقابل كل نوع من أنواع الضمانات من خلال أسقف لندن، وفي اليوم نفسه، وبما أنه قرر البقاء في ستين Staines نهض رجال حاشية جون في الصباح، وانسدفوا يدورون حول المنطقة، متوقعين هجوماً في كل شيء وحركة.

وعندما سمع المستشار بهذا، فرّ من أمام وجه الكونت، الذي اعتقد أنه يتبع أثره بحنق عظيم، وتصرف تصرف انسان مرعوب، فابتعد بنفسه ونأى بها — ولا أريد أن أقول هرب — حتى وصل إلى قلعة لندن، ومعه سلاحه وأثقاله وحاشيته وأهل بيته، ووضع خيوله في الطابق الأرضي من القلعة، وفي قاعة الطعام القديمة، وأعدّ نفسه للحصار، الذي كان وشيكاً، حسبما اعتقد.

وبعدما سمع الكونت بالذي فعله المستشار، جاء أيضاً وأقام في لندن، ومعه رتشارد فترزيرنر، وروجر دي بلين Planes رئيس هية قضاء جميع أراضي الكونت جون، وكان مصاباً بجراحة بالغة من قبل واحد اسمه رالف بوتشامب Beauchamp كان المستشار قد جعله فارساً، وقد توفي يوم ٧ تشرين الأول، وفي اليوم التالي، وحتى يبدد العداوة بينه شخصياً وبين المستشار، اجتمع الكونت جون مع رؤساء الأساقفة، والأساقفة والإيرلات في دير القديس بولص في لندن، وقرعت النواقيس التي استخدمت بالعادة لجمع الناس معاً، وبعدما عقد الجميع نقاشاً طويلاً معاً، أقسم الكونت جون يمين الولاء للملك رتشارد.

وعقد يوم الخميس ١٠ تشرين أول مؤتمر في الجزء الشرقي من قلعة لندن، وكان الحضور:

رتشارد كونت مورتين، والمستشار ورؤساء الأساقفة، والأساقفة والإيرلات والبارونات، وتقرر بالاجماع وجوب إعادة جميع القلاع التي منحها المستشار برغبة منه إلى أقربائه وأسند حكمها إليهم، وعلى الأخص قلعة لندن، ووعد المستشار بآيوان مقدسة أنه سيفعل ذلك، وستبقى القلاع الثلاثة التي تسلمها من يد الملك رتشارد، وهي: دوفر، وكمبرج، وهيرفورد في ويلز في يد المستشار وتحت حكمه، ما ان يتم تسليم الرهائن التي أعطاها الشحن، الذين عينهم المستشار هناك، ويتم تقديم هنري وأوسبرت أخوي المستشار ومائيو الحاجب كرهائن حتى يتم تسليم

القلاع، وكان المستشار أقسم أنه لن يغادر المملكة حتى تكون القلاع قد أعيدت، وفي يوم السبت ١٢ تشرين أول ذهب المستشار إلى دوفر، يقوده غلبرت أسقف روشستر، وهنري أوف كورنهل Cornhill عمدة كنت.

وفي يوم الخميس التالي وضع المستشار وليم لونغ شامب عليه ثياب امرأة، لكن بما أنه لم يكن قادراً على تغيير طريقة مشيه، أخفق في عدم اظهار ذاته أنه رجل وليس امرأة، ولهذا عرفه البحارة الذين تأملوا في وجهه، واعتقل وحمل بعيداً، وتخلص بصعوبة من وضعه كامرأة، وبقي في السجن، حتى جرى اتخاذ قرار عام من قبل هيئة قضاء المملكة المقيمة في لندن، وأعطى بموجب ذلك حريته بالذهاب إلى حيث أراد، وتلقى على كل حال انذاراً وأوامر بأن ينفذ ما كان أقسم أن يفعله في الاجتماع الذي عقد قرب قلعة لندن، وأقلع المستشار يوم ٢٩ تشرين أول نحو نورماندي، ونزل في ميناء لي تربورت Le Treport.

واعتاد طفل من أطفال حاشية أسقف لندن التمتع باللعب بالطيور، وكان يدرّب صقره، لكنه وجد أن تدريب بطة صغيرة (حذف) أسهل، وكان عندما ينقر على آلة موسيقية يدعوها البازيرية باسم الدف، تندفع البطة نحوه وهي تصدر أصواتاً عالية بجناحيها، وما أن تعلم صقره هذا وفهمة حتى طار وغطس وأمسك بواحدة من سمك الكراكي، كانت تسبح تحت سطح ماء النهر، وحملها حوالي الأربعين قدماً فوق الأرض الجافة، وأرسل الأسقف كل من سمكة الكراكي والصقر إلى الكونت جون في ٢٢ تشرين أول، كتذكارة لواقعة غير اعتيادية.

وجرى في اليوم نفسه نقاش حول انتخاب رئيس أساقفة لكانتربري، حسبما أمر الملك رتشارد، ولكن القضية أجلت بعد نقاش طويل. ورجع ملك فرنسا من القدس، واستقبل في باريس استقبالاً مهيباً يوم

٢٧ كانون الأول، ولكن هل ستعدّ بعثته بعثة مجيدة، أو انتهت بسرعة بسبب المرض، أو بعثة شائنة مخزية بالنسبة للذين كانوا في المعسكرات؟ الذين يعرفون هم الذين سيقولون.

### سنة اثنتين وتسعين ومائة وألف

اتخذ هنري كونت شامبين، ابن أخت الملك رتشارد زوجة له، ابنة الملك عموري ملك القدس [كانت وريثة الملك عموري]، وهي التي كان التركيز قد تزوجها بطريقة أو أخرى، وهكذا كسب هنري السيطرة على جميع البلاد، مثله مثلها فعل أي ملك من ملوك القدس، وكذلك بقدر ما سيسترد المسيحيون مما فقدوه.

وكانت هناك قافلة اسلامية قادمة من القاهرة إلى القدس، حاملة جميع أنواع المؤن والعتاد والسلاح، وقد اعترض المسيحيون سبيلها ونهبوها، وكان ما أخذه الفرنسيون منها قد احتفظوا به، أما الذي أخذه الداوية والاسبتارية مع الآخرين فقد جرى توزيعه وفقاً لحكم ملك انكلترا وقراره.

وفي ١٤ أيار جاء ملك انكلترا إلى الداروم، التي كان الملك عموري قد حصنها لإيذاء المسلمين وإلحاق الضرر بهم، والتي كان صلاح الدين قد استولى عليها مراراً، وحاصرها الملك رتشارد، واستولى عليها بعد أربعة أيام، وأخذ من الأسرى ما يزيد على خمسة آلاف.

وفي ٣١ تموز استولى المسلمون على يافا، وطار في اليوم التالي رتشارد إلى حمل السلاح، ومضى إلى مساعدة المسيحيين، ومعه ثلاثة مراكب وعشرة فرسان فقط، ورسا أمام يافا، فهزم المسلمين واستولى على البلدة، واسترد

العدو شجاعته عندما سمع أنه قدم مع عدد قليل من الرجال، وحمل عليه محاولاً أسره حياً، وقد قاوم برجولة وقتل عدداً كبيراً منهم.

وفي يوم ٩ آب عقدت هدنة سمح بموجبها للمسيحيين بدخول القدس غير مسلحين، لكن رئيس أساقفة صور قرر حرمان كل واحد سيذهب إلى القدس للسوفاء بنذر صليبيته بصلاة موجهة من قبل المسلمين، وتقرر أن تدوم الهدنة اعتباراً من عيد الفصح المقبل: ثلاث سنوات، وثلاثة أشهر، وثلاثة أسابيع وثلاث ساعات، ومامن انسان شكك بالحكمة القائلة: «من الصعب قطع حبل جُدل ثلاث مرات»، ولكي لا يدع المسلمون مجالاً للشك في عزمهم على الحفاظ على كلمتهم، بعثوا بسهم، ليكون شارة على السلام، أي لن يكون هناك خوف من تطاير النشاب أثناء النهار.

وفي يوم ٢٩ أيلول صعدت الملكتان ظهر سفينة، وأعني هنا: بيرنغاريا ملكة انكلترا، وجوانا ملكة صقلية، وغادرتا من عكا، وفعل الملك رتشارد الشيء نفسه يوم ٩ تشرين أول، ونزل في حوالي ١١ تشرين ثاني في مكان اسمه كورفو، وهو واقع ضمن أراضي امبراطور القسطنطينية، ثم غادر السفينة الكبيرة التي كان يستقلها، ومضى ومعه شينين، ونزل في سلافونيا، وبعدها مضى خلال البندقية، وأكويليا، دخل إلى بلاد دوق النمسا.

وقد ألقى القبض عليه في مدينة فينا يوم ٢٠ كانون الأول، ومع أن الدوق لم يضع فعلاً قدمي الملك في الأغلال، غير أن خشونة معاملة حرسه له جعلت اقامته أسوأ مما لو كان في الأغلال، فرجال هذه البلاد موسومين بالهمجية والقسوة، مرعيين في حديثهم، قذرين في عاداتهم، تغطيهم الأوساخ، وعلى هذا كان هو بالحري مقياً بين حيوانات وليس بين بشر.

## سنة ثلاث وتسعين ومائة وألف

في يوم ٢٨ شباط توفي صلاح الدين.

وفي يوم ٢٣ آذار سلم دوق النمسا ملك انكلترا إلى الامبراطور [هنري السادس] (٢٥) وذلك بعدما اتفقا على مبلغ من المال، وبعدها أرغم الامبراطور الملك رتشارد على دفع فدية عظيمة، باستخدامه للتهديدات، سجنه في قلعة اسمها تريفل Trifels قائمة على حدود ألمانيا واللورين، وهي قائمة على قمة جبل أعلى من الجبال التي من حوله، وبنيت لتكون سجناً فقط للأعداء المشهورين بالخطورة وبسوء السمعة بين أعداء الامبراطورية الرومانية.

ولم يحدث هذا بالصدفة، بل دبرته الحكمة الربانية وقضت به أن يكون انتقاماً، حتى يعود رتشارد إلى جادة الصواب ويتوب، ويقلع عن تجاوزاته التي اقترفها ضد أبيه الأرضي هنري الثاني ملك انكلترا، عندما كان محتضر في لامانس، بحصاره لهذه البلدة بمساعدة من ملك فرنسا، وصحيح أن رتشارد لم يضرب والده نفسه بالفعل، إنه مع هذا أرغمه على التراجع بوساطة حملات متتالية ووحشية زائدة.

وعندما سمع جون كونت مورتين بأن أخاه كان في السجن، تدغدغ بآمال عظيمة في أن يكون ملكاً، فربح إلى جانبه عدداً كبيراً من الناس من جميع أرجاء المملكة، وقدم وعوداً كثيرة، وبسرعة متن قلاع، وعبر البحر، وعقد اتفاقاً مع ملك فرنسا قضى بحرمان ابن أخيه آرثر دوق بريتاني وإبعاده عن الآمال التي يرعاها البريتانيون حوله.

وعندما كان الملك رتشارد في السجن كان قلقاً كثيراً ومهتماً بشأن شغور كرسي كانتربري، فكتب الشروط التالية:

«من رتشارد، ملك الانكليز، بنعمة الرب إلى عزيزه المخلص رتشارد أسقف لندن، وإلى عميد كنيسة كانتربري وإلى جميع الأساقفة المساعدين، تحيات:

نريد أن نبحث معكم، بقدر ما نستطيع، وحسب امكاناتنا، مسألة التعيين لكنيسة كانتربري التي هي الرأس والأم لكم جميعاً، تعيين رجل مناسب، ومقبول منا ومنكم ومن جميع المملكة، رجل سوف يسعى وراء سلام الكنيسة المقدسة وأمنها وسلام مملكتنا وأمنها».

وبعد ما قرىء هذا الكتاب بشكل علني، اجتمع كثير من الأساقفة بناء على دعوة أسقف لندن، وعلل بعضهم غيابهم واعتذروا بوساطة رسالة أو من خلال الرسل، واستجاب للدعوة أيضاً عدد من رؤوس البيوتات الدينية، وجرى الانتخاب يوم ٢٩ حزيران.

وبذلت الملكة إليانور، أم الملك مع وولتر أوف كاوتانس، رئيس أساقفة روان، ورئيس هيئة العدالة في انكلترا وبارونات آخرين، غاية الجهد للحفاظ على سلام المملكة، وسعوا لجمع القلوب المتخاصمة فيما بينها بشكل دائم، وقرر رئيس هيئة العدالة، وجوب عودة غيوفري رئيس كانتربري والرهبان الذين جاءوا معه إلى لندن، حيث حصل توماس الشهيد الرائع على تاجه بدمه، لتمجيد اسمه خلال العالم أجمع، وفي يوم ٢٩ أيار، تقدم الرهبان على الأساقفة وانتخبوا هيوبرت وولتر [أسقف سالسبري] وقبل ذلك عميد يورك، ولقد أوحى إليهم روح ما وأوضحت أنه سوف ينتخب من قبل الأساقفة، وترأس الاجتماع رجال من ذوي المراتب المتوسطة وعملوا بمثابة هيئة قضائية في بيت الكهنة في كانتربري، وأعطوا موافقتهم على الانتخاب.

وحسبها كان مرتباً، جرى في يوم الأحد، الذي هو يوم مقدس، انتخاب هيوبرت أسقف سالسبري رئيساً لأساقفة كانتربري، وتم ذلك

الانتخاب من قبل الأساقفة، وأعلنت النتيجة إلى الناس، من قبل أسقف لندن، وجرى الإعلان في وستمنستر، وهو المقر الملكي المشهور، والمكان الممجد دوماً من أجل انتخاب رؤساء الأساقفة، وأعطى وولتر رئيس أساقفة روان ورئيس هيئة العدالة في انكلترا الموافقة الملكية والتأكيد.

وكان هناك لقاء عام لجميع أعيان ألمانيا عقد في وورمز، يوم ٥ تموز، حيث جرى البحث بشأن فدية ملك انكلترا، وكان هناك الثمن الذي دفعه الامبراطور هنري إلى ليوبولد دوق النمسا، فقد أعلن أنه دفع له خمسين ألف مارك فضي، ولكن الامبراطور الذي كان مرابطاً عظيم الشهرة، استطاع أن يضاعف ماله في يوم واحد، فاستخلص مائة ألف مارك من الملك (٢٦)، وبات المبلغ الحقيقي الذي سيدفع فدية للملك هو مائة ألف جنيه (باوند) من نقود كولون، وتقرر دفعه على أقساط في أوقات محددة، وتم تقديم خمسين رهينة مقابل الدفع.

أما بالنسبة لجمع المال، فسنعرض الآن ونوضح صورة الحب والاخلاص التي أظهرها رجال الملك المخلصين، بداية مع الكنيسة: جاءت الكنائس الكبرى مع خزائن مليئة منذ زمن بعيد، وقدمت الأبرشيات كؤوس قرايينها الفضية، وتقرر وجوب أن يدفع رؤساء الأساقفة والأساقفة، ورعاة الدير، ورؤساء الكنائس، والإيرلات والبارونات، ربع دخلهم السنوي، وأن يدفع الرهبان السسترشيان والبريمونستراتينشيان Premonstratensian جميع نتائجهم من الصوف

وأن يدفع رجال الدين الذين يعيشون على العشور، العشر من دخلهم. ودهش الألمان لرؤيتهم تدفق الناس بشكل كبير ومستمر من الأساقفة، ورعاة الدير، والإيرلات والبارونات والناس الأقل شأناً من مختلف المناطق وأبعدها، على طلب رؤية الملك، وكان كل واحد في بلاده

متشوقاً لعودته، وبما أن عدداً كبيراً من الناس أعادوا معهم أنواعاً من التعليمات [التي نسبت إلى الملك] كتب الملك الرسالة التالية:

«من رتشارد ملك انكلترا إلى وولتر رئيس أساقفة روان:

مهما بلغ عدد المرات التي نرسل بها رسائل إليكم في انكلترا مع أوامر صادرة إليكم، عليك أن تعتمد فقط الرسائل التي تتعلق بسمعتنا وتقدمنا، أما الرسائل التي لاتتعلق بسمعتنا أو منفعتنا، فلا يجوز اعتمادها».

وجرى استدعاء هيوج أسقف تشستر—حسبما قال— من قبل الملك، وأعدّ نفسه إعداداً جيداً مع هدايا عظيمة، وقد تعرض لكمين حتى قبل أن يتعرض لمخاطر ألمانيا، فبينما كان يرتاح في إحدى الليالي قرب كانتربري، ألقي القبض عليه وسرق، وكان ماثوودي كبير، شحنة قلعة دوفر، قد أعطى حمايته إلى اللصوص، ومع أنه حرم بالاسم من قبل رئيس الأساقفة والأساقفة تحت شموع مضاءة، من غير المعروف فيما إذا كان قدم ترضية صحيحة لما اقترفه.

وتزوج فيليب ملك فرنسا أخت ملك الدانمارك، غير أنها تطلقا بشكل غير متوقع، وجرى الحديث عن هذا أكثر مما جرى حول ما حدث في العرس يوم ١٥ آب في أمين Amiens وفضلت الملكة المطلقة أن تعيش في سواسون على العودة إلى بلادها الدانماركية.

وعاد الرسل الذين أرسلهم رئيس الأساقفة إلى البابا لإحضار الطيلسان البابوي، وعاد معهم واحد يدعى «الأسقفى» يحمل الطيلسان نفسه، وعقد اجتماع عام للأساقفة في كانتربري يوم ٥ تشرين الثاني، حضره أيضاً بعض رعاة الدير، وذلك من أجل استقبال رئيس الأساقفة وتتويجه.

وعندما بات كل شيء محتاج إليه لهذا الاستقبال جاهزاً، جرى تتويجه

بشكل مهيب ومنح قبلة السلام، وقد جلس على يمينه أسقف لندن وعلى يساره أسقف ونشستر، ثم ذهبوا في موكب لاستقبال «الأسقفي» وهو يحمل الطيلسان، وتوجه رئيس الأساقفة إلى المذبح المرتفع، وهناك قيد بقسم الثالث القديم، مع اضافة قليل من الكلمات الجديدة، التي نعتقد أنه من غير الضروري ذكرها هنا.

ثم وجهه وولتر رئيس أساقفة روان شؤون المملكة لمدة سنتين وثلاثة أرباع السنة، وذلك بمثابة رئيس هيئة القضاء في انكلترا، وهو لم يباش جماعة النبلاء في تلك الأثناء، ونأى يديه عن أخذ الأعطيات، ناظراً إلى الفرقاء بعين واحدة ومعيار واحد، وذهب هذا الرجل بناء على طلب من الملك رتشارد إلى ألمانيا، وسافرت معه إليانور أم الملك، وقد احتفلا بعيد الغطاس على الطريق.

### سنة أربع وتسعين ومائة وألف

وكتب «ولتر رئيس أساقفة روان إلى رالف أوف ديستو عمدة لندن: إنني أعلم أننا منذ أن أتينا إلى مولانا العزيز والمشهور جداً، ملك الانكليز، لم نكتب إلى أحد في انكلترا، حتى الثالث من شباط حيث سمعنا بمسائل جديدة بأن نخبركم عنها، ومتوجب علينا أن نكتب لكم عنها، لأنه في ذلك اليوم نظر الرب الرحيم إلى شعبه في مينز، بتدبيره اطلاق سراح المولى الملك، ففي ذلك اليوم نفسه في الساعة التاسعة منه، كنا نحن أنفسنا حاضرين نيابة عن المولى الملك، وذهب أسقفا مينز وكولون بين السيد الامبراطور والسيد الملك، ودوق النمسا يلتمسون اطلاق سراح الملك، وبعد بذل جهود كبيرة ومصاعب مع كثير من المتاعب، حصل الأسقفان على اطلاق سراحه.

واتصلت الملكة ونحن أنفسنا وأساقفة باث، وإيلاي، وسينت، وعدد كبير آخر من النبلاء بالملك شخصياً، وأخبرناه باختصار بالأخبار السعيدة، وهكذا أعلن السيد الامبراطور له، أنه صحيح قد أبقاه بالاعتقال لديه لمدة طويلة، سيطلق سراحه الآن ويمنحه الحرية، وبناء عليه يمكنه من الآن فصاعداً أن يستأنف سلطاته، فقد حصل على حريته، وحلت المسألة وفقاً لرغبته».

وتزوج في هذه الآونة هنري ابن أخت رتشارد ملك انكلترا، والابن الأول ولادة لهنري دوق سكسوني، الابنة الوحيدة والوريثة لكونراد كونت أوف بالاتينت Palatinate.

وجرت نقاشات كثيرة بين الامبراطور والملك، ليس من أجل إعداد مال الفدية الذي سيدفع فقط، بل لتخفيض مرتبة الملك [بجعله تابعاً للامبراطور] وقد امتزج بهذه المفاوضات شيء كان إجرامياً تماماً، وكان بكل تأكيد عملاً مناقضاً للشرائع، وضد القوانين، وضد السوابق الحسنة، ومع ذلك صحيح أن الملك وأتباعه حلفوا الأيمان بأنهم سيرعون ذلك، وقدموا رسائل تأكيد واعتراف كانت معترف بها ومقبولة في كل مكان في العالم، لقد كان الفرقاء محللين من أيانهم لأنها استخرجت منهم بشكل غير قانوني، وكذلك الرسائل ينبغي ألا تتملك أية سلطة في المستقبل، ولا أن تحصل على أية قوة في مجرى الأيام.

وجرى تقديم وولتر رئيس أساقفة روان، ووليم لونغ شامب، مستشار الملك، وعدد آخر من الأعيان، كرهائن، حتى يأتي وقت تحريرهم عندما يتم دفع عشرة آلاف مارك، وهو مبلغ طلب من الملك دفعه على الفور، وقد أقسموا على مراعاة هذه الأحكام، وألا يغادروا ألمانيا بدون معرفة الامبراطور.

وقدم الملك الانكليزي إلى كولون بناء على طلب ملح ومستعجل من

رئيس الأساقفة أدولف، وقد استقبل بحفاوة بالغة في قصره، حيث الأبهة عظيمة والاحتفالات رائعة، وقد بقي هناك لمدة ثلاثة أيام، وفي اليوم الثالث باشر رئيس الأساقفة الأمور بنفسه، ونشط من أجل حضور الملك قداساً يعقد في كنيسة القديس بطرس، وطرح رئيس الأساقفة جانباً ثيابه الفخمة، واحتل مكان قائد جوقة المرتلين، ووقف وسط الجوقة مع الآخرين من أفراد الجوقة، وبدأ القداس المقدس، وتلا: «أعرف الآن بصدق أن الرب بعث بملاكه وأنقذني من أيدي هيرود».

وسافر الملك رتشارد، وركب الطريق دونما توقف حتى نزل في انكلترا في سندويش يوم الأحد ٢٠ آذار، وفي يوم ٢٣ آذار جرى عقد اجتماع هائل لرجال الدين وللشعب، وجرى استقباله في موكب مرّ خلال المدينة المزينة حتى دخل إلى كنيسة القديس بولص، ومن هناك ركب الطريق إلى نوتنغهام، ووصل إليها بالحال، وبعد ثلاثة أيام تسلم استسلاماً جميع المدافعين عنها الذين طلبوا رحمته.

واحتفل الملك بعيد الفصح في نوتنغهام، وتسلم بعد ثمانية أيام تاج المملكة من هيوبرت وولتر، رئيس أساقفة كانتبري، وجرى ذلك في ونشستر، وكان بين الحضور أيضاً وليم ملك اسكوتلندا.

وفي يوم ١٢ أيار ركب الملك رتشارد سفينة من بورتماوث، ووصل إلى نورماندي إلى بركس [الصحيح ليزكس] وقابل أخاه جون، الذي سجد على قدميه يطلب الرحمة منه، وقد حصل عليها، وزحف نحو فيرنويل Verneuil فسمع أن الملك الفرنسي كان يحاصر القلعة، وأنه لم يكن هناك توقف منذ ثمانية أيام سواء عن رمي النيران بواسطة المنجنيقات، أو بقذف الحجارة الكبيرة، أو باستخدام آلات الحصار، أو بحفر الأنفاق تحت المدافعين، أو بالحاق الجراحات بأجساد المدافعين، ثم حلّ موعد وصول ذلك اليوم العظيم في التقويم، اليوم الذي كرس للجلالة العلوية، إنه اليوم الأعظم في جميع أنحاء العالم، ذلك هو يوم عيد

الشعانيين، الذي يحتفل فيه المسيحيون في كل مكان من أمكنة الكرة الأرضية.

ثم سمع الفرنسيون كيف أن ملك الانكليز كان يحضر تحت جناح الظلام للقتال، وقد سمعوا أنه سيهاجم في اليوم التالي، فارتعبوا لدى سماع هذا التقرير، وأثر الرجال المرعوبين الفرار على القتال، وآثروا أيضاً العار الأبدي، على الخسارة، فتراجعوا وانسحبوا من أمام القلعة.

وعاد وولتر رئيس أساقفة روان من ألمانيا بعدما تم دفع العشرة آلاف مارك، واستقبل يوم ١٩ أيار في كنيسة القديس بولص في لندن، حيث تولى تقديم عظة وقداش للناس، وبعدها أكمل طقوس القداش جرى الاحتفاء به بعناية في بيت أسقف لندن، وتوجه في يوم ٣٠ أيار بحراً نحو نورماندي.

وكان الملك الفرنسي يتراجع مسرعاً من فيرنويل، ولكي لا يظهر وكأنه لم يفعل شيئاً أقدم على حصار بلدة صغيرة قرب روان تدعى فونتين Fontaine بسبب كثرة الينابيع المتفجرة فيها، وكان في داخلها أربعة فرسان وعشرين رجلاً مسلحاً بمثابة حرس لها، ولقد عزم الملك الفرنسي على شيء ليس أقل من تحويل حاكم عظيم مع جيشه كله إلى مثل هذا المكان الصغير.

وبعدما وزع نوبات الهجمات الشديدة، هاجم الملك نفسه الباب في اليوم الرابع، فتغلب على الحامية الصغيرة، ودمر كل شيء، غير أنه احترم رجال روان نفسها، خشية أن تنبعث في نفوسهم الحمية كما فعل أهل فونتين، وهكذا رجع إلى أراضيه محزناً على الأقل نصراً صغيراً.

وفي تلك الآونة كان الجيش الأنجيفي يحاصر قلعة وليم غويي Gouet التي بنيت على مقربة من لي فيرت برنارد التي تدعى أيضاً مونتميرال Montmirail وقد استولى هذا الجيش عليها وهدمها

بالكامل.

وبعدما تراجع الملك الفرنسي من فيرنويل، جاء الملك الانكليزي إلى تور، حيث دفن مارتن المقدس، واستلم ألفي مارك هدية طوعية من برجاسية المدينة الذين جمعوها بدون أي إكراه، ثم تقدم رتشارد إلى بيوليو Beaulieu التي قامت على حدود تورين، وحاصرها وتمكن خلال أيام من الاستيلاء على قلعة لوشي، وكان الملك الفرنسي قد تسلم لوشي من وكلاء ملك الانكليز، وجعلها تحت سلطانه، وكان وقتها الملك الانكليزي بالأغلال، وقد تسلمها بمثابة ضمانة حتى لا يتم حرق الاتفاقية المعقودة بين الملكين، ووقتها شحنها الملك الفرنسي بخمسة عشر فارساً وثمانين رجلاً مسلحاً مع مايكفي من مؤن وعتاد للدفاع عن المكان.

وفي تلك الأونة جاء ابن ملك نافار بمثابة حليف ملك الانكليز، وكان قد حشد جيشاً كبيراً يضم فيما يضم مائة وخمسين من حملة القسي العقارة، وقد نهب بلاد غيوفري أوف رانكون Rancon لورد أوف تيليبورغ Taillebourg وبلاد كونت أنغوليم Angouleme.

وأغار الملك الفرنسي على حدود تورين، ونصب خيامه قرب فاندوم Vandome لكنه عندما شهد قدوم ملك الانكليز، أزال معسكره في الصباح الباكر، وعاد مسرعاً إلى فرتفال Freteval وتبعه رتشارد وسار خلفه واستولى على قطار أثقاله، والكونتات والبارونات والنبلاء والفرسان الذين كانوا يدافعون عنه ويقاتلون، واستولى على جميع معداتهم، وعلى الذهب والفضة المحفوظة في الصناديق وفي أماكن أخرى، وكذلك على الخيام، وعلى القسي العقارة، وعلى عدد لا يحصى من الأشياء الأخرى، التي كانت أثمانها غير محددة، فلقد استولى رتشارد على هذا كله وحمله بعيداً دون المعاناة من أية جراحة لنفسه.

ومضى من عيد أحد العنصرة، عندما طلب ملك الفرنسيين الفرار، حيث نجا من فيرنويل خلال الليل. سبعة وثلاثون يوماً إلى اليوم الذي كان مقيماً فيه قرب فاندوم ، وقد فوجيء بالصباح ورعب من الجراحات القاسية التي لحقت برجاله، لذلك ألقى بنفسه في شاتودون Cha-teaudun واتخذ داخلها موقف الدفاع.

واستروح الملك الانكليزي رائحة النصر، فعبر إلى بواتو، واستولى بعد عدة أيام على تيلبورغ Taillebourg وجميع أراضي غيوفري أوف رانكون مع جميع أراضي كونت أوف أنغوليم، وعلى هذا لم يبق فيما بين مفرق شارل [مرونسيفو في جبال البرانس المفترض أنه كان مسرح معركة نشيد رولاند] وقلعة فيرنويل، ولا عاص متمرده.

وكتب «البابا كليستين إلى أسقف فيرونا:

نحن نرغب، وبموجب الارادة الرسولية نأمر، ونقضي بأن نتولى أخذ يمين من دوق النمسا، بالمواثيق التي تراها ضرورية، في أن يطيع دونها خداع أوامرنا التي أرسلت إليه بوساطتك نفسك، أو بالرسائل أو بالرسول، وبعدهما تتسلم هذا اليمين، أصدر إليه أمراً بموجب فضائل أحكام اليمين في أن يطلق سراح جميع رهائن ملك الانكليز، وأن يلغي جميع الشروط التي استخرجها من الملك، وأن يعيد إليه كل شيء أخذ منه وكذلك ما أخذ من رجاله، ويتوجب عليه إعادة ما أخذه خطأ بمثابة فدية للملك تماماً دون نقص، وعليه ألا يحاول من الآن فصاعداً مثل هذا العمل. وينبغي عليك ايجاد صيغة مناسبة للتعويض عن جميع الجراحات والأذى الذي اقترفه.

وبعدما يكون قد جرى إتمام هذه الأشياء وتنفيذها، عليك أن تمنحه التحليل، وأن تخفف الحرمان المفروض على أراضيه، وعليك أيضاً أن تأمر الدوق المذكور ورجاله، بعدما تسلمت أيانهم ومنحتهم التحليل

والغفران، أن يقوموا في أقصر وقت يمكنهم، بالذهاب إلى منطقة القدس والبقاء هناك في خدمة المسيح قدر الوقت الذي أمضاه الملك السالف الذكر في الأسر، وإذا لم يلتزموا بهذه الأشياء ويأخذوا بها، أعد اصدار قرار الحرمان نفسه عليه وعلى رجاله، بدون حق الاستئناف.

صدر في روما، في كنيسة القديس بطرس؛ ٦ حزيران ١١٩٤.

وجمع ملك الانكليز بموجب أمر عام جميع النبلاء الخاضعين له، في لامانس، حيث أثنى بصوت مرتفع على اخلاص الانكليز له في محنته.

وعقدت هدنة بين ملكي فرنسا وانكلترا، لكن مرور التجار خلال خطوط القتال منع. وفرض ملك انكلترا في هذه الآونة بعض الاجراءات لتحسين الأوضاع المالية الملكية، وأعلن أنه يتوجب على جميع الفرسان من كافة أنحاء انكلترا القدوم والاجتماع معاً بغية اختبار قوتهم في المبارزات، معتقداً أنه ربما إذا ما أعلن الحرب على المسلمين أو على جيرانه، أو فرضاً حاول أحد الأجانب غزو المملكة، فوقتها سيجدهم أكثر نشاطاً، وأحسن تدريباً، وجاهزية للقتال.

وجرى أخيراً تحديد يوم، وتعيين مكان، فدعا إلى المبارزات المكرسين على تمارين الفرسان وتدريباتهم، وحضر رجال من الانكليز ومدربين بشكل جيد على الحركات العسكرية، وبارعين بالسيف وقادرين على الضرب والطعن، ولكن بما أنهم حملوا رماحاً خفيفة جعلهم هذا غير مستعدين لمعركة حقيقة بقدر ما كان الأمر معركة افتراضية ونوع من أنواع الاحتفالات الكمالية، وظهروا بشكل أفضل بامتلاكهم وحلهم للمشاعل، وكان هناك شباب جدد على حرفة الفروسية، راغبين بالمدح أكثر من الثروة، لهذا لم يضغطوا قط على الذين هزمهم بقوة السلاح: بسجنهم أو بارغامهم على دفع فدية غير معقولة، بوساطة أنواع خاصة من التعذيب، لكن وقد أسروهم بموجب حق الحرب، اكتفوا منهم بوعد قائم على الثقة

الجيدة، وهكذا تركوا أسراهم يذهبون، ليعودوا عندما يطلبون.

ووصل أربعة رسل من عند الملك فيليب إلى رتشارد ملك الانكليز، يحملون كلمات سلام، ويطلبون البحث في شؤون المملكتين، وذلك خشية أن يقوم عدد كبير من رعاياهم بهجر كثير من أماكن سكناهم بسبب انهاكهم وافقارهم وحرمانهم من الذهب والفضة، هذا إذا لم يتم تدميرهم بالسيوف المحاربة وبسفك الدماء، وكرروا القول إن الخلاف بين المملكتين يمكن أن تحسم نتائجه وينال الاستقرار والحل بوساطة المباراة بين خمسة رجال شجعان، وينبغي إعلان حكم المتبارين إلى الشعب في كلا المملكتين الذي يتوقع النتيجة وينتظر إعلان أي الملوك سيؤثر الملك السرمدى جانبه.

ولاقت الخطة والشروط على الفور رضا ملك الانكليز، واختار الملك الفرنسي خمسة من رجاله، واختار ملك الانكليز خمسة من رجاله أيضاً، وبعدهما جرى إعدادهم بكل دقة وتسليحهم والباسهم السوابغ والدروع باتوا متساوين ومتقاربين للمباراة.

وحبست في هذه الأيام نفسها سمكة تدعى بشكل عام «سمكة سمينة» [أي حوت] على النيز Naze وكان ذلك بسبب هبوب الرياح وتيار البحر، والنيز مزرعة تابعة لكهنة القديس بولص في لندن، وعندما أثير خلاف حول هل السمكة ينبغي أن تؤول إلى الملك أو إلى الكهنة جرى فحص امتيازات كنيسة لندن من قبل رئيس هيئة قضاء المملكة، وجاء القرار يقضي بوجوب صيرورة السمكة ليس إلى الملك، بل إلى عميد مقر الكهنة.

وأعاد رتشارد ملك انكلترا إلى عميد وكهنة تور وإلى بقية رجال الدين من رهبان وآخرين جميع ممتلكاتهم التي استولى عليها، وكرماً أعطى هذه الأشياء إلى السيد نائب الخبر الأعظم، وأخذت هذه الأشياء واستردت في

النكون Alencon يوم ١١ تشرين الثاني.

وكتب «ولتررئيس أساقفة روان إلى رالف أوف ديسيتو عميد لندن،  
تحيات:

حقوق السيد نائب الخبر الأعظم ونحن أنفسنا استرداد جميع الممتلكات  
الدينية التي صادرها ملك الانكليز من أرض السيد ملك الفرنسيين،  
ونحن نعمل على الجانب الفرنسي ونسعى لدى ملك فرنسا أن نسترد  
لأنفسنا ولرجال الكنيسة الآخرين الأشياء التي أخذت من أرض الملك  
الانكليزي. صدر في سنس».

أخذ الامبراطور هنري الطريق إلى بلرم، وهناك استقبل بموكب مهيب  
في الكاتدرائية، وتوج ملكاً على صقلية في ٢٢ تشرين الثاني.

وكان في ٢٦ كانون الأول ليوبولد دوق النمسا في غراز Graz  
يستعرض قواه ومهارته بالفروسية مع جنده، وكان مسلحاً وفق عادات  
بلاده، وقد سقط من على حصانه واندقت قدمه، وأوصلته جراحه حتى  
الموت، واتخذت، بناء على نصيحة الأطباء، اجراءات مستعجلة، وجرى  
بترقدمه، وهكذا حدث أن الرجل الذي ربط قدمي الملك رتشارد عندما  
كان على طريقه عائداً من القدس، يعاني من آلام حمل الصليب على  
جسده، وينوي العودة إلى الأراضي المقدسة، والذي حرمه من الإذن  
بالذهاب إلى حيث أراد، قد حرم من قدمه عقوبة على جريمته التي  
اقترفها، وكان ذلك مثل قرار حكم بطرس أوف رافينا، الذي قال بين  
أشياء وهو يكتب عن الولد المبذر: «من أجل الرفاه، والنهم والجشع،  
ليكن الجوع نصيبه، وبذلك ستضرب العقوبة المكان الذي اقترف فيه  
الذنب».

وكتب «هنري بنعمة الرب الامبراطور، والأغسطس الدائم، وملك  
صقلية إلى صديقه العزيز ولتررئيس أساقفة روان، تحيات وحب.

نحن نعلم أنك تطير فرحاً بسعادتنا ونجاحنا، وبناء عليه ندعك تعرف اننا تملكنا بنعمة الرب جميع مملكة صقلية وأبوليا بسلام، وكان هناك بعض الأعيان من المملكة معارضين لنا كثيراً في البداية، ثم تابوا إلى حظيرة نعمتنا، غير أنهم مالبثوا أن تأمروا بعد ذلك مؤامرة خيانية رهيبة ضد شخصنا، وبما أنه مامن شيء مغطى إلا وسيكشف، فبنعمة الرب كشفت المؤامرة وأخفقت وأحببت وبناء عليه أمرنا بهم جميعاً أن يؤخذوا ويثقلوا بالأغلال، وزادت النعمة الربانية والرحمة من سرورنا حيث ولدت رفيقتنا كونستانس، الامبراطورة اللامعة للرومان والأوغسطا، يوم ٢٦ كانون الأول، لنا ولداً، شاركونا في سرورنا، أعطونا أخباراً عن أنفسكم وعن أحوال بلادكم. صدر في سان ماركو في ٢٠ كانون الثاني».

### سنة خمس وتسعين ومائة وألف

بموافقة من جميع الكرادلة، صار هيونرت رئيس أساقفة كاتربري [ورئيس هيئة العدالة] النائب البابوي، وقد تمتع بسلطات كاملة، لم يسمع بنظيرها منذ قرون.

وكتب «وليم أسقف إيلاي إلى رالف عميد لندن:

نبعث إليكم وفقاً الرسالة التي أرسلها شيخ الجبل إلى الدوق ليوبولد صاحب النمسا، حول وفاة مركز [مونتفرات] وقد حوت الكلمات التالية:

رسالة قيل إنها جاءت من قائد الطائفة الاسلامية التي لاتعرف الرحمة، والتي تدعى الحشيشية، وفيها ادعاء أنهم هم الذين يتحملون مسؤولية قتل كونراد أوف مونتفرات وليس رتشارد الأول، وهدفها في تبرئة الملك الانكليزي من الحادث زيف واضح».

«إلى ليوبولد دوق النمسا، يبعث شيخ الجبل بتحياته.

بما أن عدداً كبيراً من الملوك والأمراء فيما وراء البحار يلومون السيد رتشارد، ملك انكلترا، من أجل وفاة المركيز، إنني أقسم بالله الذي يحكم إلى الأبد، وبالشريعة التي نؤمن بها، أنه لا ذنب له في ذلك الموت، والسبب الذي أدى إلى موت المركيز هو هذا:

كان واحد من اخوتنا عائد إلى مناطقنا من ساتاليا Satalia (أضاليا)، لكن الريح دفعته إلى صور، حيث أمر المركيز بأخذه وقتله، وسلب منه كثيراً من المال، وبعثنا إلى المركيز برسولنا نخبره أن يعيد مال أخينا إلينا، وأن يتفق معنا حول التعويض عن موته، لكنه لم يرغب بشيء من هذا أبداً، زيادة على ذلك لقد أبدى ازدراءً نحو رسولنا، لابل حتى اتهمنا بوفاة اللورد رينالد (أرناط) صاحب صيدا، علماً بأننا نعرف من رفاق لنا أنه هون نفسه قتل رينالد وسلبه، ثم بعثنا إليه برسول آخر اسمه ادريس، وقد أراد اغرقه، لكن رفاقنا ساعدوا الرسول للنجاة من صور، وعندها بادر ادريس مسرعاً إلينا وأخبرنا بالذي حدث، وأردنا من تلك الساعة أن نقتل المركيز وبناء عليه بعثنا باثنين من اخواننا إلى صور، فقتلوه بشكل مكشوف، وأمام شعب المدينة كله تقريباً، لقد كان هذا السبب في قتل المركيز، ويمكننا أن نخبركم بصدق بأن رتشارد ملك انكلترا ليس مذنباً في موت المركيز، وأي انسان يحاول أن يؤذيه بسبب هذه القضية، يقترف بذلك عملاً ظالماً، وبدون مسوغ، واعلم بشكل مؤكد أننا لم نقتل أي انسان في هذا العالم مقابل أجر أو مال أو أي شيء، مالم يكن قد سبب لنا أولاً ضرراً. وكتبت هذه الرسالة في قلعتنا مصيف، في منتصف شهر أيلول أمام اخوتنا، وقد ختمت بختمنا في سنة ١٥٠٤ للاسكندر».

«لقد بعثنا بنسخة من هذه الرسالة إليك، أنت الذي ندرك تماماً مدى حبه، حتى يمكنك أن تثبتها في تاريخك».

## سنة ست وتسعين ومائة وألف

حدث في هذه الآونة فيضان عظيم مفاجيء جرف كل شيء كان قائماً قرب السين سواء من الأخشاب أو الحجارة، وكان فيليب ملك فرنسا وموريس أسقف باريس مقيمان آنذاك في باريس، وكانا خائفين بشكل كبير.

ولعل فيليب تفكربيت [المزامير ١٦/٦٩] قوله: «لايغمرني سيل المياه ولايتلغمني العمق ولا تطبق الهاوية عليّ فاها» فقرر الالتجاء إلى رابية، فغادر قصره، وأخذ ابنه لويس وجميع أسرته لإمضاء الليل في دير القديسة جينيفف، وردد الأسقف قوله: «المياه قد دخلت إلى نفسي» [المزامير: ٢/٦٩]، ومع ذلك أخذ نفسه وشعبه للإقامة في دير القديس فكتور.

وغالباً ما رأيت في هذه الأيام الحد الذي بلغه انتشار الشرور والخلاف في مدينة لندن، حول توزيع حمل الأعطيات التي توجب تقديمها للخزانة، تبعاً لقدرة كل واحد على الدفع، الأمر الذي يمكن أن يقال حوله أنه نظم بشكل غير عادل، وكان قائد هذا الخلاف رجل يدعى وليم فترأوسبرت Fitzosbert الذي غالباً ما دعا إلى الاجتماعات، وجعل الناس يقسمون أياناً مضادة لجلالة الملك ومكانته، فقد عذب أخاه مع اثنين كانت موافقهما سليمة، بقسوة حتى الموت، وكان آخر أفاعيله الشريرة إثارة اضطراب في كنيسة القديس بولص، وعندما وجد أنه أثار السلطات إلى حدّ الغضب، اعتصم في برج إحدى الكنائس العائدة إلى رئيس أساقفة كانتربري [سينت ماري لي بو Bow] وحول المكان المقدس إلى قلعة، ثم عندما رأى عدداً كبيراً من الرجال المسلحين قادمين، وفي سبيل النجاة من الاقتراب من الموت، ألقى النار

في الكنيسة، وبذلك أحرق قسماً من معبد الرب.

وقد حُمل من الكنيسة إلى قلعة لندن ليقابل حتفه، ذلك أن عقوبة واحد يمكن أن تلقي الرعب في قلوب كثير من الناس، وقد حكم عليه من قبل النبلاء في أن يجرد من ثيابه، وأن تربط يداه خلف ظهره وكذلك تربط قدماه بحبل طويل، وأن يجربوساطة حصان خلال وسط المدينة إلى المشنقة القائمة قرب تيبورن Tyburn وعلق هناك بسلسلة معدنية حتى لا يموت سريعاً، وجرى تعليق تسعة من أصحابه في الجريمة معه، وذلك لكي ينال الذين تلوثوا بالجريمة نفسها عذاب العقوبة نفسها، ومن أجل ضمان سلام المملكة والحفاظ عليه صدر قرار عن رئيس الهيئة القضائية بوجود إيداع أولاد أو أقرباء عدد كبير من ذوي المراتب الوسطى في مختلف السجون حول البلاد وذلك بعد أخذهم بمثابة رهائن، هذا وقدم الفقراء ترضية موائمة وفقاً لحكم جيرانهم.

وكتب «وولتر رئيس أساقفة روان إلى رالف عميد لندن:

أنت تعرف أية أنواع من المحن والمصاعب توجب على كنيسة روان أن تعاني منها منذ زمن طويل إلى الآن، ونأمل في أن نقنع الملك في أن يكون أكثر لطفاً نحونا ونحو كنيستنا، ذلك أنه أثر نصائح الآخرين السيئة، فاستولى على ميراث الكنيسة، وأعني بهذا لاس أندلاس Les Andelays وتجاهل حظرنا فبدأ ببناء قلعة، مسبباً أذى للرأس وضرراً يمكن مع الأيام أن ينقل الأضرار إلى الأطراف، وإنا نحن أنفسنا مع آخرين محقين في انذار الملك مرتين ثم ثلاث مرات ليقلع عما بدأ بفعله، وليقوم بترضية موائمة لنا، ويرضينا بالتعويض عن مختلف أنواع الأذى التي ألحقها هو ورجاله بنا، باحراقهم عزيبا وأشياء كثيرة هائلة، وأن يعيد إلينا بيعتنا في بليث Blyth مع دخلها الذي وضعه في يديه منذ سنة أو أكثر، ولقد قدم معاذير مختلفة، كلها لا قيمة لها وغير منطقية، واستمر فيما بدأ به ولم يصنع لتحذيراتنا، وإذا ما أراد أن تبقى لنا

حيواتنا، يمكنه أن يفعل، خشية أن تكون أندلاس هي المفرج الوحيد والمتنفس لأنفسنا ولحاجات الفقراء.

والذي يجعل هذه الأفاعيل غير مغفورة أو مسوغة أنه لم يحتفظ بجزيرتنا تحت احتلاله فحسب على الرغم من تحذيراتنا، بل أخذ في زيادة تحصين أراضينا بالخنادق والدفاعات، وعندما رأينا هذا الغزو يزداد بسرعة سوءاً، ذهبنا متذللين مرة ثانية إلى مولانا الملك، وخشية أن يظن أننا نعمل مخادعة أخذنا معنا بعضاً من أعيان كنيستنا ورجونا الملك وتوسلنا إليه لكي يظهر رحمة نحونا وأن يعيد جزيرتنا التي اغتصبها، وأن يعوض علينا الأضرار التي سببها لنا ولكنيستنا، وأضفنا أنه إذا لم يرضنا خلال ثلاثة أيام لن نكون قادرين أكثر على اغماض أعيننا عن عناده، ولن نترك المسألة تمر دون عقاب، ثم لإضافة التعاسة فوق الشقاء، ولتعريض كنيستنا لمشاكل الحرب الأهلية، قام وليم أسقف ليزوكس مدفوعاً بالتكبر وبخبائث من الجحيم، فأثار اعتراضاً ضد أمه الكنيسة، ولهذا السبب استحق الحرمان، وكان ذلك بناء على نصيحة عدد من أتباعه الأساقفة، لتجاوزاته الكثيرة، ولطغيانه وعصيانه.

وبما أننا لم نعد قادرين بأي طريق، سواء بالرجاء أو بالانذار، أن نعيد الملك إلى عقله، فلقد انقضى الوقت المحدد دوننا ظهور بوادر ترضية، نجد أنفسنا مدفوعين بالضرورة ألا ندع أعمال الأذى الكثيرة والكبيرة هذه تمر بدون عقوبة، ما لم يسرع الملك إلى اصلاح خطاياهم. ولسوف نذهب إلى روما يوم ٧ تشرين الثاني، حيث نأمل بعون الرب ونعمته أن نجعل أسقف ليزوكس بالعار والفوضى أمام البابا، ذلك أن سلوكه الآثم لم يترك لنا خياراً سوى إيجاد عقوبة مؤثمة له، إننا نطلب منكم برحمة الرب رحمة أخوية نحونا، وأن تدعو الرب من أجلنا».

## سنة سبع وتسعين ومائة وألف

مُهل رئيس أساقفة كانتبري مريضاً جداً، ولم يكن قادراً على الاحتفال بقداس يوم عيد الميلاد، لكن لحسن الحظ تعافى وأمضى مدة الميلاد في كانتبري، ودخل دير الرهبان للتباحث مع الرئيس ومع الرهبان، وقد قيل بأنه ترك جميع حاشيته، حتى حامل صليبه بالخارج، ومشى أمامه واحد من الرهبان واسمه جون أوف دوفر، حاملاً صليبه، والذي حدث في الداخل خلال الأيام الثلاثة التالية غير معروف لكثير من الناس، والذي أفشي هو فقط مايلي:

دخل رئيس الأساقفة بسلام، وظهر رئيس هيئة عدالة الملك بسلام، ولم يعثر خلال الاجتماع على شيء يستحق الإدانة دينياً أو مدنياً.

وأحرق الملك رتشارد مع جيش كبير كان بصحبته قلعة القديس فاليري، ونهب المنطقة المحيطة بها، وجرى شنق قباطنة خمسة سفن كانوا يجلبون المؤن إلى الأعداء، والذي عثر عليه في السفن وزعه الملك على رجاله يوم ١٥ نيسان.

وهطل مطر غزير في انكلترا لمدة ثلاثة أيام، وقد أخاف ذلك عدداً كبيراً من الناس.

[وصدر الإعلان التالي]:

«دع كل من يقرأ هذه الرسالة يعرف، أن هذه هي اتفاقية ومعاهدة بين رتشارد ملك انكلترا، وبين بلدوين كونت أوف فلاندرز وهينو قريبه: لن يعقد ملك انكلترا هدنة أو سلاماً مع ملك فرنسا دون رغبة الكونت وموافقه، وكذلك لن يعقد الكونت هدنة أو سلاماً مع ملك فرنسا دون رغبة ملك انكلترا وموافقه، وإذا حدث وعقد كل من الملك والكونت

سلاماً مع ملك فرنسا، وشن بعد ذلك ملك فرنسا الحرب على واحد منهما، عندها سوف يكون ملك انكلترا والكونت مربوطين بتبادل العون والمساعدة، بقدر ما يستطيعانه وكما كانا يفعلان وقت عقد هذه المعاهدة، ولايجري تطبيق هذه المعاهدة أوقات الحرب فقط لكن بشكل دائم بين الطرفين، وورثتها الذين سوف يملكون البلاد من بعدهم في السلم والحرب وإذا لم يحافظ ملك انكلترا على الاتفاقية، سوف يقدم الذين أقسموا — نيابة عنه ولصالحه أنه سوف يفعل — أنفسهم إلى الكونت المذكور، ويضعونها تحت تصرفه خلال شهر واحد من معرفتهم بالخرق، وذلك دون انتظار منهم لدعوة الكونت لهم، ومثل هذا، إذا ماخرق الكونت الاتفاقية، على الذين أقسموا نيابة عنه ولصالحه تسليم أنفسهم إلى ملك انكلترا خلال الشهر دون انتظار الدعوة. وأقسم عن الملك ولصالحه جون أوف مورتين أخو الملك، وأقسم كونت فلاندرز عن نفسه ولصالحها بحفظ المعاهدة. وكان هناك شهود كثر على كلا الجانبين، ستكون هناك حاجة لوقت طويل لتعدادهم. أبرمت في لاس أندلاس.

وأمر هيوبرت رئيس أساقفة كانتبري من قبل الملك بعبور البحر، وقد غادر لامبث، ثم عاد إلى هناك في ٨ تشرين الأول، أي بعد عشرين أسبوعاً وستة أيام.

وحينما كان في نورماندي أنجز عدداً كبيراً من الأعمال النافعة، فقد سمع بأن أسقف بوفياس Beauvias الذي شغل وظيفة مزدوجة، هي وظيفة الأسقف والكونت، قد وجد وهو يحمل سلاح فارس، تبعاً لما اعتاد أن يتفاخر به أجداده، وقد ألقى القبض عليه، وحفظ بالأغلال من قبل رتشارد الأول، وتمكن رئيس الأساقفة من اقناع الملك في ابقاء الأسقف في حجز أكثر سهولة، وصالح كنيسة روان، التي كانت الخدمات الدينية فيها معلقة، وأضاف بعض الفقرات إلى معاهدة السلام بين ملك انكلترا وبلدوين كونت فلاندرز وخلفائهما، وبذل جهوداً

كبيرة، ونجح في العمل على إعادة السلام بين رتشارد ورئيس أساقفة روان، بإيجاد بديل دائم، تعويضاً لكنيسة روان عن لاس أندلاس.

كانت ماتزال حاجة رتشارد للمال ملحة، لهذا دعا هيوبرت البارونات الانكليز إلى اجتماع ليطلب منهم المزيد من الاسهام المعتبر، وكان هيوج أسقف لنكولن بين الذين قاوموا الملك، وذلك حسبما يروي لنا صاحب سيرة حياته:

### سنة ثمان وتسعين ومائة وألف

قبل قرابة سنة وأربعة أشهر من وفاته، أصبح رتشارد ملك انكلترا حنقاً عظيم الغضب من هيوج أسقف لنكولن، وكان الملك فيما وراء البحر، منشغلاً في صراع مريم مع فيليب ملك الفرنسيين، وتمت الدعوة إلى اجتماع عام لجميع بارونات انكلترا في اكسفورد، وذلك بناء على طلب من هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، ومدح رئيس الأساقفة منافع الملك، وشرح أوضاعه الصعبة، وبين أنه اعتماداً على موارد قليلة وقوي صغيرة كان يصارع ضد ملك قوي (٢٧) جداً، ملك كان يثير كل جوارحه ليحرمه من ملكه وليدمره، وسألهم أخيراً أن يقرروا ككتلة واحدة الوسائل التي يمكنهم بها على أحسن وجه مساعدة مولاهم في وضعه الصعب جداً والحرج، وطرح وقتها اقتراح من قبل الذين هم مثله، ويعتقدون بوجوب اطاعة كل رغبة للملك بدون تردد، أنه يتوجب على بارونات انكلترا بما فيهم الأساقفة امداد الملك بثلاثمائة فارس حتى يقاتلوا معه طوال السنة فيما وراء البحر ضد أعدائه، وذلك على حسابهم.

وعندما طلب من أسقف لنكولن بشكل علني اعطاء الموافقة على هذا الاقتراح، بقي صامتاً يفكر حتى بادراً أولاً رئيس أساقفة كانتربري ثم

رتشارد أسقف لندن، الذي شغل منصب العميد بين الأساقفة، فأعلنا عن استعدادهما لتكريس نفسيهما ورجاهما وممتلكاتها لحاجة الملك، وهنا قدم اجابته حول السؤال الذي طرح عليه فقال:

«إنني أعرف تمام المعرفة أن كنيسة لنكولن مكرّسة لخدمة الملك في الحرب، لكن في هذه البلاد فقط، وإنها حقيقة ملزمة أن مامن خدمة متوجبة وراء حدود انكلترا، ولهذا إنني أؤثر العودة إلى موطني الأصلي واستئناف طريقة حياتي العادية، على أن أبقى هنا أسقفاً، مسبباً إلقاء حمل على الكنيسة التي تحت سلطتي، بلاسابقة، ومن ثم التخلي عن حقوقها القديمة».

وتلقى رئيس الأساقفة هذه الاجابة بامتعاض، وسأل بشفتين ترتجفان من الغضب، وبصوت خافت، هربت أسقف سالسبري عن رأيه حول تأمين العون إلى الملك، فرد على هذا السؤال باختصار وقال مايلي: «يبدو بالنسبة لي، أنه بدون الحاق ضرر عظيم بكنيستي، أنا لايمكنني أن أقول أو أفعل شيئاً آخر غير الذي اقترحه أسقف لنكولن الآن أن يفعل»، وفقد الآن رئيس الأساقفة السيطرة على نفسه تماماً، وانفجر في وجه أسقف لنكولن، ثم فض الاجتماع، وقام باخبار الملك بأن أسقف لنكولن هو المسؤول عن رفض اقتراحه، وعندما استقبل الملك اثنين أو ثلاثة رسل من عند رئيس الأساقفة، أمر وهو في حالة هياج من شدة الغضب بمصادرة جميع ممتلكات الأسقف، وأرسلت التعليقات نفسها إلى أسقف سالسبري الذي أيد أسقف لنكولن ثم ماالذي أعقب هذا؟ عانى أسقف سالسبري من المصادرة مباشرة، وتمكن من شراء من رضى الملك واسترداد ممتلكاته بدفع مبلغ كبير من المال، وتحقق هذا من خلال ذهابه إلى الملك وتحمله لكثير من الاهانات، وللمزيد من الاساءات، وبدفع ثمن باهظ وبعد مصاعب جمة، ولم يتجرأ، على أية حال، أحد على الاستيلاء على أراضي وممتلكات أسقف لنكولن، خشية اثاره غضبه،

وخوفاً من حرمانه الذي ساوى الحكم بالموت، ولهذا لم يتخذ اجراء ضده من عيد القديس نيقولا إلى بداية ايلول، لأن عامل المصادرة الملكي لم يتجرأ على مصادرة ممتلكات الأسقف على الرغم من أوامر الملك المتوالية والقاسية.

وأخيراً، وتحت إلحاح طلبات الموظفين الماليين، الذين تعرضوا لضغط شديد من الأوامر الملكية القاضية بمصادرة ممتلكاته، ذهب أسقف لنكولن عبر البحر إلى الملك، واتصل بالملك نفسه، بدون الاستعانة بخدمات أي وسيط، ووجده في البيعة في قلعته الجديدة في لاس أندلاس، يستمع إلى قداس رفيع بمناسبة عيد الطبيب الكبير القديس أوغستين، يوم ٢٨ آب، وحياء مباشرة، وكان الملك جالساً على عرش ملكي عند المدخل، والأسقفان: فيليب أوف درم ويوستاس أوف إيلاي يقفان عند قدميه، وعندما حياه أسقف لنكولن، لم يرد الملك عليه، بل قطب في وجهه، وبعد وقت قليل أشاح بوجهه عنه، وقال الأسقف له: «مولاي الملك، قبلني»، لكن رتشارد أدار رأسه أكثر ونظر نحو الاتجاه الآخر، وهنا أمسك الأسقف بشدة بإزار الملك الذي لفه حول صدره، وهزه بعنف قائلاً ثانية: «أنت مدان لي بقبلة، لأنني جئت من مسافة بعيدة لرؤيتك» فأجابه الملك: «إنك لاتستحق ولاقبلة مني» فهزه بعنف أكبر من قبل، وهذه المرة بوساطة رداثة الذي أمسكه بقوة، وقال بجرأة: «إنني أمتلك كل الحق بواحدة» ثم أضاف «قبلني»، واستسلم الآخر أمام شجاعته واصراره، وبعد قليل قبله مع ابتسامة.

وتبادل أسقف لنكولن مع الملك عبارات الاحتجاج بعدة كلمات قاسية، لغضبه الأخير الذي هو غير مسوغ، وقدم تعليقات كثيرة أظهر فيها أنه لم يخفق قط في أداء واجبه نحو الملك، ولم يستطع الملك معارضته، ولهذا وضع جميع اللوم على رئيس أساقفة كانتربري، الذي غالباً ما أساء الشرح له في رسائله، واستفاد الأسقف من هذا التوضيح واستغله

بسهولة لإقناع الملك أن كل ما قيل غير صحيح تماماً، وقال: «إنه باستثناء مجد الرب، ونجاة نفسي ونفسك، لم أعارض قط حتى الآن أي شيء هو لصالحك».

وهكذا انطفأ غضب الملك وسخطه، وقدم أعطيات ملكية إلى الأسقف، وأرسله للإقامة بمثابة ضيفه في شاتو— غيلارد -Chateau-Gaillard التي بناها حديثاً على إحدى الجزر [لاس أندلاس] التي لم تكن بعيدة كثيراً، وطلب الملك من الأسقف أن يعود في اليوم التالي ليراه، حتى يتمكن بعد مقابلة أخرى من العودة إلى وطنه وهو واثق من صداقته، وسمع هيوغ أسقف لنكولن هذا شاكرًا، ووعد بالعودة في اليوم المقبل.

وشعر هيوغ، وهو الأب الروحي للملك، بمسؤوليته عن سعادة نفس رتشارد، وبناء عليه، أخذ بيده، وجعله يقوم من على كرسيه، وسحبه جانباً إلى مكان قرب المذبح، وسأل هيوغ رتشارد الجلوس، ثم جلس هو نفسه، وشرع بعد ذلك يتكلم معه على انفراد، وقال له: «إنك فرد من أبرشيتنا يامولاي الملك، وبسبب وضعنا الكهنوتي سوف نجيب في يوم الحساب الرهيب، عن نفسك، التي أنقذها رب العالمين بدمه الخاص، ولهذا أسألك أن تخبرني عن أحوال ضميرك، فبذلك يمكنني أن أقدم لك مساعدة فعّالة ونصيحة حسبا ستوجهني روح القدس، فقد مرّ مالا يقل عن سنة منذ أن تكلمت معك حول ذلك في مناسبة أخرى.

وفي الحقيقة، إنه فيما يتعلق بك، وهنا أتكلم بأسف، هناك روايات أنك غير مخلص لفراش الزوجية، وأنت لا تبقي امتيازات الكنيسة دون انتهاك، لاسيما فيما يتعلق بتعيين الأساقفة أو انتخابهم، لابل لقد قيل إنك اعتدت على رفع أناس إلى حكم النفوس صدوراً عن عواطف الصداقة، أو أنهم دفعوا لذلك، وهذا ذنب شائن جداً، وإذا صح هذا فالرب لن يمنحك السلام».

وأصغى الملك باهتمام إلى عظته ونصيحته، وأنكر في بعض الحالات أنه كان مجرمًا، وسأل مساعدته بصلواته في مسائل أخرى.

وبعدما تلقى الملك مباركته تركه يذهب، وانطلق هيوج شاكرًا نحو مكان الإقامة الذي اختاره له الملك وأعدّه.

وتباحث الملك في الوقت نفسه مع أعوانه حول الأسقف، وعلق على قداسه بشيء كبير من الإعجاب وقال: «في الحقيقة، لو كان بقية الأساقفة مثله، مامن ملك أو حاكم سيتجرأ على رفع رأسه ضدهم».

وتتابع مع رواية ديستيو عن حكم رتشارد في سنة ١١٩٨، التي شهدت حدثًا حاسمًا في أهميته بالنسبة للسياسة الأوروبية، وتمثل ذلك بانتخاب البابا انوسنت الثالث.

وبعدما تخلص البابا كلستين من أعباء هذه الحياة، جرى انتخاب الكاردينال الشماس لوثراريو Lothario بابا يوم ٩ كانون الثاني، وقد اتخذ لنفسه اسم انوسنت الثالث، وفي يوم ٢١ شباط رسم أسقفًا وتوج على عرش القديس بطرس.

وهطل في يوم ٨ أيار مطر دموي على الرجال الذين كانوا يتولون بناء قلعة في لاس أندلاس في منطقة روان.

واستسلمت آخن التي كان يحاصرها أوتو ابن أخت رتشارد ملك الانكليز إليه، وتزوج في اليوم التالي من الابنة الوحيدة والوريثة لدوق برابانت، وكان عمرها سبع سنوات، وفي ١٢ تموز جرى تنويجه من قبل أدولف رئيس أساقفة كولون، واعتلى عرش القياصرة.

تجمعت على تخوم ويلز، قرب مايعرف باسم قلعة ماتيلدا، قوات الدفاع الرئيسية بنوايا عدوانية وكانت هذه القوات مسلحة من أجل القتال، وكانت المجموعة الأولى من الويلزيين مؤلفة من الجنود الرجالة،

والذين كانوا في المجموعة الثانية عبارة عن فرسان ورجالة، أما المجموعة الثالثة فتكونت من الفرسان فقط، أما جيش الملك فقد تألفت المجموعة الأولى فيه من الجنود الرجالة، ووقف الفرسان في المجموعة الثانية، بينما تجمعت قوة الجيش كله في المجموعة الثالثة، ومع أول اشتباك أدار الويلزيون ظهورهم، وأخذت الأسلاب منهم، ووقع عدد كبير منهم بالأسر، وقتل عدد أكبر، فقد وصل عدد المقتولين إلى ثلاثة آلاف مقاتل، وهكذا تحققت النبوءة القائلة: «سوف تسبب الجراء العاوية مذبحه عظيمة بين صفوف كل من يعترضها».

وفي يوم ١٠ أيلول توفي رتشارد أسقف لندن صاحب الذكرى الحبيبة، وذلك بعدما شغل كرسيه لمدة ثماني سنوات، وثمانية أشهر، وعشرة أيام. ووصل بلدوين كونت فلاندرز إلى أمام بلدة سينت أومر ومعه جيشه يوم ٦ أيلول، وألقى عليها الحصار لمدة ثلاثة أسابيع.

وفيما الكونت ملقياً للحصار، وصل رسول من عند ملك فرنسا، يحمل رسالة تقول: إنه إذا ما تمكن شحنة البلدة ومعه سكانها من الصمود والدفاع عن بلدتهم ضد الكونت حتى ٣٠ أيلول، إنه سوف يأتي إلى مساعدتهم مع جيش كبير في ذلك اليوم، وإذا لم يقدم، بإمكان الشحنة وأهل البلدة أن يفعلوا أحسن ما يستطيعون، وبذلك استسلمت البلدة إلى الكونت.

ودخل رتشارد ملك الانكليز مناطق الملك الفرنسي مع جيش كبير يوم ٢٧ أيلول، واستولى على قلاع: كورسل Courcelles وبوريز Bur-riz وسيرفونتين Sirefontaine وجاء في اليوم التالي ملك فرنسا من مانتس Mantes مع أربعمئة فارس وسيرجندية مع عتادهم ومؤنهم لمساعدة قلعة كورسل، التي لم يعتقد أنها سقطت، ولهذا ما ان رآه ملك الانكليز قادماً حتى أقنعه بإدارة ظهره والفرار، وزجّه في أوضاع

محرجة عند بوابة غيسور، حيث تحطم الجسر تحته، مع غرق عشرين من الفرسان، وأسقط ملك انكلترا بالوقت نفسه برمح ماثيو أوف مونتمورنسي Montmorency وألان أوف روشي Rusci وفولك غلر فيل Gi- lervalle وأخذهم أسرى مع مائة فارس وعدد كبير جداً من السيرجندية، وتم الاستيلاء على مائتي حصان حربي، بينهم مائة وأربعين كانوا مدرعين.

### سنة تسع وتسعين ومائة وألف

عدّ البابا إنوسنت الثالث البابا الرابع والثمانين بعد المائة في ثبت البابوات شروعاً من بطرس الرسول، الذي قال له يسوع المسيح: «أنت بطرس—الصفاء— وعلى هذه الصخرة سوف أبني كنيسة».

تسلم وليم المولود في نورماندي، والكاهن في كنيسة لندن، هبة السيامة في وستمنستر في بيعة القديسة كاترين، وجاء ذلك بناء على طلب من رالف ديستيو عمدة لندن، وكان الذي قدم إليه الهبة هو هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، بحضور ثلاثة عشر أسقفاً، في يوم ٢٣ أيار.

في ٢٦ نيسان جرح ملك انكلترا بسهم أطلقه بيتر باسليوس Ba-sillius قرب قلعة شالو Chalus في الليموزين في دوقية أكويتين، وتوفي بعد ذلك في القلعة يوم الثلاثاء، وجاءت وفاته جدية وموامة لرجل أوقف نفسه على أعمال الحرب، وقد حكم تسع سنين وستة أشهر، وتسعة عشر يوماً.

وقد دفن في فونترفولت Fontevrault عند قدمي أبيه، هنري

الثاني.

قدم آدم آينشام وصفاً دقيقاً لرحلة هيوج لنكولن السريعة والمرعبة لحضور جنازة رتشارد الأول في فونتفرولت.

جاءت راعية دير فونتفرولت المبجلة إلى أسقف لنكولن وأخبرته على انفراد بأن الملك قد أصيب بنشابة أطلقت عليه من قوس عقار، وأمضى عدة أيام في آلام مبرحة، وأن حالته خطيرة، ومن غير المعروف هل سيظل حياً أم سيموت، وبقدر ما أذكر، أصيب الملك بجرحه القاتل في اليوم نفسه الذي تعرض فيه الأسقف للمضايقات بوساطة الأذى الذي صدر عن مستشاريه الأشرار، ولدهشتنا أنه خلال الوقت الذي مضى فيما بين وصول الرسول وجراحة الملك مامن واحد تحدث معه حول كيفية معالجة هذه القضية، فقد جلس بهدوء ينتظر «الخلاص من الرب».

وفي الوقت نفسه سأل عميد أنغرمع الكهنة الأسقف أن يرأس القداس يوم أحد السعف، بسبب أن أسقفهم لم يعد من المجمع الكهنوتي في روما، حيث جرت سيامته حديثاً، وقد وافق، وعندما كان يوم السبت في طريقه إلى المدينة، رآه أحد الكهنة واسمه غلبرت دي لاسي Gilbert de Lacy وأخبره أن الملك قد مات ولاشك حول ذلك، وأخبره أنه سيدفن في اليوم التالي عند قدمي أبيه في فونتفرولت.

وعند سماع الأسقف هذه الأخبار تنهد وأجهش بالبكاء بصوت حزين مرتفع، وأخبر على الفور مرافقيه أنه سيذهب إلى المكان المتقدم الذكر لحضور الجنازة، وحاول الجميع أن يمنعه من فعل ذلك، زد على هذا أنه عندما قدم إلى المدينة، سمعت اشاعات من جميع الجهات أن المسافرين قد هوجموا في كل مكان وسلبوا، وسمع أيضاً أن بعضاً من رجاله، الذين كانوا جالين له مالأمن انكلترا قد وقعوا في أيدي قطاع الطريق، وأن

هؤلاء أخذوا منهم أربعين ماركاً فضيّاً.

وحته رفاقه وخدمه ألا يعرض نفسه وصحبه إلى هذه المخاطر، وأن يبقى في المدينة حتى ينجح الخليفة الشرعي لرتشارد في اخماد عنف هؤلاء الرجال الأشرار، وأصرّ بعضهم على القول بأن شرورهم كانت كبيرة إلى حد أنه لم يبق لديهم احترام لأسقف أكثر من انسان عادي، وقالوا:

«ما الذي ستفعلونه، وإلى أي طريق ستتحولون، إذا — لاسمح الرب — كنتم في بقعة منعزلة وتعرضتم للسلب من خيولكم ومن ثيابكم؟».

وكان وهو الرجل المستقيم، شجاعاً وثابتاً مثل الأسد، وأصبح الآن في الحقيقة أقل خوفاً في وجه الخطر، فرد على هذا كما يلي:

«من الواضح كثيراً أن هناك أشياء لا تخصي تخيف المسافر وتثير أعصابه في هذه الرحلة، وعلى كل حال إن الذي يبدو لي ما ينبغي أن يخشى منه هو أن أقوم أنا بالتصرف كرجل جبان، فأتمنع عن شهود مولاي السالف وملكي في هذه المناسبة، وأن أخفق في تقديم الاحترام للميت مع الولاء، مثلما قدمتُ له دوماً وأنا حي، وافترض أنه آذاني، لأنه لم يكن متنبهاً تماماً ومتيقظاً لمستشاريه الأشرار، ولإطراءاتهم؟ ولكي نكون متأكدين، لقد فعل ذلك، لكن عندما كنت معه عاملني دوماً باحترام فائق، ولبى لي طلباتي كلما اتصلت به شخصياً حول أية مسألة تتعلق بي شخصياً، وإذا كان قد عاملني بشكل سيء بأية طريقة من الطرق عندما كنت غائباً، فهذا ينبغي عزوه إلى شرور خصومي وليس لنوايا شريرة صادرة عنه، ولهذا سأبذل جهد مستطاعي لأرد له أعماله الحسنة وفضائله نحوي، هذا ولن يكون الخطأ خطأي إذا لم أقدم خدماتي أثناء الجنازة، وإذا ما واجهت لصوصاً على طريقي، وإذا ما أخذوا خيولي وثيابي، ستوصلني قدمي إلى هناك بشكل أسرع، وذلك إذا ما تحررت

من أثقال ثيابي، وإذا ماربطوا قدماي، وسلبوني من أية قدرة على الحركة، وقتها فقط يكون غيابي الجسدي مسوغاً، لأن مرد ذلك لبس لخطأي بل للمعوقات التي فرضها عليّ أناس آخرون».

وبعدما قال هذا ترك معظم رفاقه، وجلّ أثقاله في المدينة، وانطلق، أخذاً معه واحداً من أقل كهنته أهمية، وراهباً وعدداً ضئيلاً من خدمه، ولقد سمع بأن الملكة بيرنغاريا كانت مقيمة في قلعة بوفورت Beau- fort وقد تحلى عن الطريق العام وسافر خلال منطقة غايبة كثيفة إلى تلك البلدة، وذلك بهدف مواساتها لموت زوجها، ونفذت كلماته إلى نفس الأرملة الحزينة، ذات القلب المحطم، وسكّن حزنها بطريقة رائعة، وتحدث إليها بشكل جميل جداً عن الحاجة إلى الجلد في مواجهة النوازل وإلى الحكمة في أوقات السعادة، وبعدما أقام قداساً، وأعطى الملكة والذين معها تبريكاته المهيبة بشكل عاطفي فيه حب وولاء، غادر على الفور، ووصل في ذلك اليوم إلى بلدة تدعى سومور Saumur حيث جاء سكان البلدة بشكل انفعالي لمقابلته، وتجاوب مع الرجاءات الحارة التي قدمها له غلبرت دي لاسي الذي ذكرته من قبل، والذي كان يشرف على المدرسة هناك، وأقام معه، حيث عومل بكرم فائض، ووصل في فجر اليوم التالي، الذي كان أحد السعف إلى دير فونتفرولت، والتقى عند باب الكنيسة مع حملة تابوت الملك، وبعدما دفن بشكل فخم جداً، مع الأبهة الملكية، ذهب الأسقف أخيراً إلى المقر الذي عين له، ولمدة ثلاثة أيام كاملة اعتاد أن يذهب إلى الدير، حيث كان يردد القداسات والمزامير ويصلي للعفو عنه، وللمباركة بنور سمردي يصاحب نفسيّ الملكين اللذين دفنا هناك، ونفوس جميع المؤمنين الذين ماتوا في المسيح.